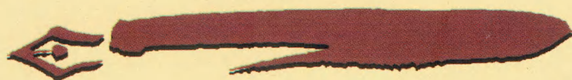
عبد الله بن المقفع

الكاتب والمترجم





عيسى محمود ناصر



الهيئة المصرية العامة للكتاب

عَبْدُ اللهِ بن المقفَّعْ

الكاتب والمترجم

ناصر، عيسى محمود.
عبد الله بن المقفع: الكاتب والمترجم/ بقلم: عيسى محمود ناصر. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.
١٤٨ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٧ ٠١٩٢ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ ابن المقفع، عبد الله بن المقفع، ٧٢٤ ـ ٧٥٩.
٢ ـ الأدباء العرب.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٤٢٢٢/ ٢٠١٥

I. S. B. N 978 - 977- 91 - 0192 - 7

ديوى ٩٢٨,١

عَبدُ اللهِ بن المقفَّعْ

الكاتب والمترجم

بقلم
عيسى محمود ناصر



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٥

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد

اسم الكتاب : عبدُ اللهِ بن المقفَّعْ
الكاتب والمترجم
تأليف : عيسى محمود ناصر

الإخراج الفنى : مادلين أيوب فرج

الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www.gebo.gov.eg
email:info@gebo.gov.eg

هذا كتاب خطه والدى الأستاذ عيسى محمود ناصر - رحمة الله تعالى عليه - قبل أن يدفع به إلى طلابه وأبناء أمته الذين أحبهم، وشاء القدر ألا ينقطع حبل عطائه بعد وفاته فترك هذا الكتاب الذى بين يديك أيها القارئ الكريم، وهو ثمرة جهده ونفحة قلبه وروحه، وإنى لأرجو أن تجد فيه النفع والمتعة وأن تذكره بدعاء: أن يطيب الله ثراه، وأن يجعل الجنة مثواه اللهم أمين والحمد لله رب العالمين.

د. عادل ناصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

لم يكن من نافلة القول، أن تتجه عنايتى وتفكيرى إلى إبراز حياة هذا الكاتب العبقرى، والمترجم الفذ، وأن أترجم له ترجمة توخيت فيها البسط والإيضاح وخاصة فى هذا العصر، الذى اتجه إلى إحياء تراث العرب، وبعث أمجاد هؤلاء الأعلام الخالدين، حتى امتلأت دور الكتب، وتزاحمت المطابع بكثير من هذه المؤلفات والمترجمات، وأقبل شباب هذه الأمة العربية على القراءة إقبالا يدعو إلى الغبطة والفخر.

لم يكن ابن المقفع علمًا من أعلام العرب فحسب، وإنما كان نابغة فذّا وعبقريا نادرا، غالى الناس جميعًا فى الإعجاب بذكائه، ورجاحة عقله، وأصالة رأيه، وأغرقوا فى الثناء عليه، فلم يكن للعرب بعد أصحاب رسول الله ﷺ أذكى من الخليل بن أحمد، ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع، فهو وحده أمّة فى البلاغة، ورصانة القول، وشرف المعانى، امتاز باللسان العضب، والبيان العذب، والخيال الرائع و....

ومن ذا الذى ينكر فضل هذا الرجل على اللغة العربية وآدابها، وهو أول مترجم من اللغة الفارسية إلى اللغة العربيّة، وأحد أمراء البيان الذين تأثروا بالثقافات الأجنبية المتعددة، فكّون لنفسه طريقة فى الكتابة، ومدرسة خاصة به نافست مدرسة عبدالحميد الكاتب، ومدرسة الجاحظ.

عاش عبدالله بن المقفع فى عصر الانتقال المملوء بألوان البطش والجبروت، واستطاع أن يخرج منه كما يخرج المعدن النفيس من بوتقة الاختبار أكثر ما يكون صفاء ولمعانا.

على أن الترجمة لم تكن وصفًا له مقصورًا عليها، وإنما كان أديبًا لامعًا وكاتبًا عبقريًّا، جيّد الصياغة، واضح البيان كثير التأليف فى أحوال الأمة السياسية والاجتماعية والدينية والأدبية.

لم تكن علوم الفرس وحضارتهم كل ما للفرس فى هذا العصر، وإنما أضيفت إليهم علوم جديدة، وحضارة إسلامية مصدرها انتحالهم للإسلام، وخضوعهم لدولة العرب، فنبغ فيهم الرواة، والقراء، والأدباء والكتاب، والشعراء، والفقهاء والمفسرون، والمتكلمون، والمؤرخون، واللغويون وغيرهم من الأطباء والفلاسفة والفلكيين والمحدثين.

لهذا حرص كل ناشئ على إتقان ما أورثه أسلافه من العلم والمعرفة، وما أفاده عصره من ألوان الثقافة، وفنون الأدب، ليكون ذلك فضيلة تقربه من ذوى الملك والسلطان، وترفع شأنه عند هؤلاء الولاة والخلفاء.

ولن أتعجل القول، فأقدم ابن المقفع إلى القراء فى كلمات من هذا التقديم، وإنما أوثر أن يستمتع القارئ الكريم بما كتبت عنه ليعرف أنه كان أمة فى البلاغة وفصاحة فى القلم واللسان وكبيرًا من أكبر كُتّاب العربية وعلمائها وأدبائها والمترجمين إليها.

والله أسأل أن يلهمنا الصواب، إنه هو المستعان،

عيسى محمود ناصر

عصر ابن المقفع

نشأ عبد الله بن المقفع في فترة من أشد الفترات التى مرت بالدولة العربية الإسلامية، فقد شهد أحداث الدولة الأموية عند انهيارها، وكان قد بلغ أشده، كما شهد كيف قامت الدولة العباسية على أنقاض بنى أمية، ورأى كثيرًا من المؤامرات، وتقلبات الأيام، وتداولها بين الناس، وعرف كثيرًا من أدواء الأمم الخفية والظاهرة، والعوامل الهدّامة التى تفتك بها وتقضى عليها، وكان في خلال ذلك قوى الملاحظة، مرهف الحس، شديد الذكاء، يرى ويسمع، ويسجّل ويكتب حتى اشتهر أمره، وذاع صيته، وأصبح رمزًا دالاً على الحكمة، والبلاغة، وإمامًا من أئمة النثر، ومرجعًا من مراجع الفكر والاجتماع.

وإن سقوط دولة بنى أمية، وقيام دولة بنى العباس من الأمور التى نشأ عنها انقلاب له أثر واضح فى اللغة وعلومها، وآدابها، وفى نواحى التطور السياسى والاجتماعى والحضارى والدينى، كما كان له أثر فى الحياة العقلية والعلمية، والدينية.

وسنتناول بالبحث الموجز عصر هذا الكاتب الفذ والمترجم الأول من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية من النواحى الآتية:

- **من الناحية السياسية.**
- **من الناحية الاجتماعية.**
- **من الناحية العقلية والعلمية.**
- **من الناحية الدينية.**

من الناحية السياسية

لقد كانت هذه الفترة التى عاشها ابن المقفع فترة حافلة بالأحداث الجسام والاضطرابات العنيفة، والحروب والمجازر، فسالت الدماء أنهارًا، حتى لم يبق أمويّ يرفع صوته، واضطر آخر أمير من بنى أمية إلى الهجرة إلى المغرب، وأسس بالأندلس بنى أمية الثانية، وهو عبدالرحمن الداخل الذى سمى فيما بعد صقر قريش[١].

وليس أدل على ذلك الاضطهاد من الاستشهاد بخطبة أبى جعفر المنصور بعد أن استقر الأمر له بقتل أبى مسلم الخراسانى رجل الدولة الأول فى تأسيس ملك العباسيين[٢] قال:ـ

«أيها الناس!»

«لاتخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولاتسروا غشّ الأئمة، فإنه لم يسرّ أحد قطّ منكرة، إلاّ ظهرت فى آثار يده، أو فلتات لسانه، وأبداها الله لإمامه بإعزاز دينه، وإعلاء حقه.

إنا لن نبخسكم[٣] حقوقكم، ولن نبْخس الدين حقه.

إنّ من نازعنا عروة هذا القميص[٤] جزرناه[٥] خبىء هذا الغمد[٦]، وإن زبا مسلم بايعنا، وبايع الناس لنا على أنه إن نكث[٧] بنا فقد أباح دمه.

---

(١) هو عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك وقد أسس دولة بنى أمية الثانية بالأندلس سنة ١٣٩٨هـ وبقيت إلى سنة ٤٢٧هـ.

(٢) أحد الرجال النادرين فى التاريخ لكفايته العملية، وبراعته السياسية والحربية، قتل سنة ١٣٧هـ.

(٣) ننقص حقوقكم.

(٤) المراد بالقميص الخلافة العباسية.

(٥) قتلناه

(٦) المراد السيف.

(٧) نقض عهده معنا ولم يف به.

ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمنا على غيره[1]، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه».

هذه الخطبة تتجلى فيها صورة الإرهاب والتعذيب التى شاعت فى أوائل العصر العباسى.

نشأ ابن المقفع فى هذه الحقبة من الزمن المملوءة بالاضطراب والهلع والفتن الكثيرة والمؤامرات وسفك الدماء والحرمان من الحرية السياسية، وكثرة الأحداث الجسام والحروب والمجازر، فسالت الدماء أنهارًا حتى لم يبق أموى يرفع صوته، وهلك مئات الألوف من الناس وكثير من أبناء المهاجرين والأنصار ومعظم القراء والعلماء، لبث ابن المقفع فى أواخر الدولة الأموية نحو خمس وعشرين سنة كانت مرحلة التحصيل والتأمل والمراقبة، ثم لبث فى أوائل الدولة العباسية نحو عشر سنين كانت مرحلة الإنتاج الفكرى فأروع ما شهده من اضطراب فى الأخلاق الحكم، التى أفرغها فى كتبه وآثاره الأدبية.

الناحية الاجتماعية

لقد كانت دولة بنى أمية شديدة التعصب للعرب والعربية، فكان كل شىء فيها عربى الصيغة، وكانت جمهرة العرب منتشرة فى كل مكان امتد إليه سلطانها، فلما قامت الدولة العباسية بدعوتها، لم تجد لها من العرب أنصارًا وأعوانًا مثل من وجدت من الفرس وأمم الأعاجم.

استقر الأمر بعد ذلك لبنى العباس، وأسست دولة قوية كان أكثر النفوذ فيها للموالى من الفرس وغيرهم، فاستخدمهم الخلفاء والأمراء فى كل شىء، وأخذ شأن العرب السياسى والاجتماعى يتضاءل شيئًا فشيئًا حتى ضعفت النعرة العربية فيهم، وكادت تعدّ دولة فارسية لولا أن الخليفة من بنى العباس.

---

(١) مثل عمه عبدالله بن على والإمامين محمد وإبراهيم ابنى عبدالله بن الحسن بن الحسين.

انقسم الأمراء والولاة بعضهم على بعض، وأصبح بأسهم بينهم شديدًا واستحكم العداء، وزادت الفتن حتى كانت كقطع الليل المظلم، واندمج العرب فى غمار العامة، واشتغلوا بالصناعة والفلاحة والحرف المختلفة، واختلطوا بالأعاجم بالتصاهر والتجاور، وانغمروا فى مدينة الفرس وحضارتها أيما انغمار، فكان من المجموع شعب ممتزج لغة وعادة وخلقًا واعتقادًا وفكرًا.

ومن المظاهر الدالة على هذا التطور الاجتماعى الاحتفال بمظاهر الحضارة الفارسية، وضعف النفوذ العربى، ومنح الحرية الكاملة للفرس، وشيوع تلك العادات المرذولة، والأمراض الاجتماعية التى لم تكن قد فشت فى العرب من قبل نتيجة امتزاج المدينتين الآرية والسامية، وشيوع المجانة والخلاعة وضعف الوازع الدينى.

وقد حاول الخلفاء العباسيون مقاومة الرذائل بنشر العلم والفتك بالمنحرفين من الزنادقة والملحدين، فأجدى ذلك بعض الشىء، ونشأت بعد ذلك عادات وأخلاق ضاعت معها أصول المدينتين الآرية والسامية وتشبه الخلفاء والأمراء والولاة والرؤساء بملوك الفرس ودهاقينهم[1] فى أكثر أمور الدولة، وحاكتهم العامة فى ذلك بتقليد أمثالهم من طبقات الأعاجم وبجانب ذلك كله كان هناك طائفة هم المثل الأعلى فى الترفع عن الدنايا ومحاربة الرذيلة يواجهون نداء الانحلال الخلقى.

الناحية العقلية والعلمية

اشتدت الحاجة إلى التدوين فى أواخر بنى أمية وفى مبدأ الدولة العباسية لاتساع ممالك الإسلام، ولدخول كثير من الأمم المتحضرة فيه، ولتعدد الوقائع والحوادث التى لم يكن لها نظير فيما سبق، فهب العلماء إلى تهذيب ما كتب فى الصحف المتفرقة وما حفظوه فى الصدور، ورتبوه وصنفوه كتبًا، وكان من أقوى

---

(١) جمع دهقان بكسر الدال وهو من العجم تاجرهم أو زعيم فلاحيهم أو رئيس إقليمهم.

الأسباب لإقبال العلماء على التصنيف والتأليف والترجمة حث الخليفة أبى جعفر المنصور، وحملة الأئمة والعلماء والكتاب، وبذله فى سبيل ذلك الأموال الجزيلة، ولم يقتصر على معاضدة العلوم الإسلامية بل أوعز إلى العلماء والمترجمين من السريان والفرس أن ينقلوا إلى اللغة العربية من الفارسية واليونانية فنون الطب والسياسة والحكمة والفلك والآداب حتى زخرت بحور العلم، واخترعت الفنون وتفرعت المسائل، واشتد الجدل وتنافست الأحزاب والطوائف، وكثرت مجالس العلم فى البصرة والكوفة وبغداد، ونمت الحياة العقلية والعلمية فى هذا العصر نموا كبيرًا واكتظت خزائن الكتب، وكثر العلماء والحكماء واللغويون وغيرهم من رجال العلم والفن.

من ذلك الحين ابتدأت الآداب الفارسية تدبّ فيها الحياة، وتنتشر بصورة تغاير صورتها زمن الأكاسرة، وسارع الأعاجم والموالى إلى تعلم العلوم الشرعية، والعلوم اللسانية تقربًا للغالب، واستدرارًا للرزق، فنبغ منهم كثير من العلماء والأدباء والكتاب كانوا طلائع نهضة عامة، ورواد كل فن من فنون القول، وظهرت آثارهم فى أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية، وكان لهم قسط وافر من النفوذ.

نشأ من هذا كله كثير من المقالات المختلفة فى الإلحاد والزندقة، والسياسة والجدل كما نشأت فرق الشعوبية(١)، وتولدت فيهم فكرة استرجاع ملكهم. وقد تناول الأدب العربى أغراضًا كثيرة لم تعهد فيه من قبل بنقل علوم الأمم المغلوبة وآدابها وعاداتها وتاريخها، وتدوين اللغة وآدابها، والعناية بالترجمة من اللغات الأجنبية، ووضع المصطلحات الجديدة التى اقتضتها الحضارة الإسلامية.

ظهر أثر ذلك فى كتابة الأدباء، وجدال العلماء، و انتحاء مذاهب الفلاسفة وكثرة التصورات الغريبة، والمعانى الدقيقة التى ظهرت فى مثل كتابة ابن المقفع، وعبد الحميد الكاتب، وعمرو بن مسعدة، وسهل بن هارون والجاحظ هذا إلى

---

(١) الشعوبية مذهب يرى أن العجم أفضل من العرب، وأول من جهر بذلك «إسماعيل بن يسار» فى قصيدته المشهورة التى أنشدها بين يدى هشام بن عبد الملك.

التأنق فى صوغ العبارات، وجعلها فى غاية الإحكام والبلاغة مع الافتنان فيها، وتوخى الألفاظ الرائعة الطنانة، ونقل كثير من طرق الأداء فى اللغات الفارسية والهندية واليونانية والسريانية إلى اللغة العربية، وأصبح لكل كاتب مدرسة خاصة يمتاز بها عن غيره كمدرسة عبدالحميد، ومدرسة ابن المقفع، ومدرسة الجاحظ، وكثرت الفرق والمذاهب، واشتد التنافس بين العلماء والأدباء والشعراء والكتاب وتباروا فى إظهار البراعة، والإغراق فى المبالغة، والاهتمام بالمعانى والأخيلة، وابتكار الموضوعات، وحاول كثير من الموالى نشر مقالاتهم القديمة بين الناس يلقونها إليهم ابتغاء الفتنة، والشبه فى الدين، وتصدّى لهم رجال مؤمنون بالرد عليهم من طريق العقل ليدافعوا عن الإسلام هذه الفتن العمياء وهذه الشبه التى ما لبثت أن انقشعت ظلماتها.

بجانب ذلك أخذت مذاهب الفرق الإسلامية كالشيعة والخوارج تصطبغ بصبغة سياسية ودينية معًا، واشتد الأخذ والرد بين أهل الحديث وأهل الرأى من المجتهدين وهم أصحاب القياس الذين يقولون برأيهم فيما لم يجدوا فيه حديثًا أو أثرًا، وظهر التصوف على مثال زهاد الهنود وغيرهم، وسرى الفساد إلى اللغة العربية فهب علماء اللغة يتلقونها من أفواه أهل البادية، الذين احتفظوا بها إلى آخر القرن الأول الهجرى.

على أن علوم الفرس وحضارتهم لم تكن وحدها فى هذا العصر كل ما للفرس، بل أضيفت إلى أبناء فارس علوم جديدة مصدرها انتحالهم للاسلام وخضوعهم لدولة العرب، فنبغ فيهم الرواة، والقراء، والمتكلمون، وأصحاب الأخبار، واللغويون، والمؤلفون، وأصحاب المعانى والمحدثون، وغيرهم.

والناشئ منهم يجد فى إتقان ما أورثه الأسلاف من العلم، وتحصيل ما أفاده عصره من المعرفة، ليكون ذا فضيلة تقربه من أهل الملك وذوى السلطان فليس بدعًا أن يعنى ابن المقفع بهذه العلوم، فيحرز منها قسطًا موفورًا، فكانت كتبه المملوءة بالحكمة والموعظة الحسنة والمفعمة بالآداب نتيجة من نتائج علمه الغزير، وأدبه البليغ، وفضله العظيم على اللغة وآدابها فقد كان فطرىّ الذكاء، دقيق الملاحظة، واسع المعرفة، متزن الرأى، قد اكتملت فيه عناصر الشخصية.

الناحية الدينية

كان الوازع الدينى فى فجر الإسلام قوى السلطان يخضع له خلفاء بنى أمية ومن دونهم، ثم أخذ هذا الوازع يضمحل شيئًا فشيئًا فى أواخر هذه الدولة، فتهاون الناس فى أمر الدين، وفشت الزندقة فى عهد الوليد بن عبدالملك، ثم جاء مروان بن محمد آخر الخلفاء فاتصل بالجعد بن درهم وهو صاحب رأى أخذ به جماعة بالجزيرة، حينما كان مروان واليًا عليها وإليه نسب فقيل له مروان الجعدى.

فلما جاءت الدولة العباسية واشتد اختلاط العرب بالأعاجم رأوا أن أفضل وسيلة تبلغهم ما يأملون هى تمزيق الوحدة الدينية، وبث الشكوك فى الدين، ونشر العقائد الزائفة، وساعدهم على ذلك ترجمة الكتب المشتملة على مثل هذه العقائد، وإفساح الحرية المطلقة للناس فى أقوالهم وآرائهم وأعمالهم، فانتشرت النحل المختلفة والعقائد الضالة، وفشا الإلحاد والزندقة، وكثرت المناظرات الجدلية والحرب الكلامية، فكانوا يجتمعون فى مجالس خاصة وكان عبد الله بن المقفع ممن يشهد مجالسهم وممن ظهرت على فلتات لسانه مسحة من عقائدهم، وكان إلى جانب هذه الفئة جمهرة من العلماء والنساك والزهاد والشعراء والمتكلمين، الذين اعتصموا بحبل الله، وترفعوا عن كل ما تأباه المروءة والشرف والدين فتصدوا لهم، وانتشر الجدل ونشأ من ذلك علم الكلام.

حياة ابن المقفع ونشأته

علمنا أن ابن المقفع من أصل فارسى، وأن أباه «المبارك» من مجوس[1] مدينة «جور» من بلاد فارس، وأنه تولىّ الكتابة والخراج للحجاج بن يوسف الثقفى[2] أيام إمارته على العراق وبلاد المشرق فى عهد عبدالملك بن مروان الخليفة الأموى.

يحدثنا التاريخ أن أبا عبدالله بن المقفع مدّ يده إلى أموال الدولة فضربه الحجاج ـ وهو الوالى المشهود له بالعنف والقسوة ـ على يده ضربًا مبرحًا حتى تقفعت يده وأصابها التشنج فأطلق عليه لقب المقفع حتى غلب على اسمه «دا ذويه» وعلى لقبه «المبارك»، وولد له عبد الله فى مدينة «جور» وكان اسمه «روزبه» وكنى «زبا عمرو».

هذه البلدة التى نشأ فيها والده وولده، بلدة جميلة طيبة التربة والهواء ذات عمران وحضارة، وهى على بعد عشرين فرسخًا من «سيراز» وبها كثير من الحدائق الغناء، والبساتين الفيحاء ذات الورد الأحمر الجورى المنسوب إليها، وربما كانت هذه البلدة أول بلدة تفتحت عيناه عليها، فرأى من مناظر الطبيعة الخلابة ما ملأ نفسه جمالاً، وفتن قلبه فتونًا.

كما أنه نشأ فى بيت من بيوت أهل اليسار والنعمة، فكان لذلك أثر عميق فى نفسه، دفعه إلى الإحسان والإحساس بالجمال.

---

(١) المجوس هم عبدة النار من الفرس.

(٢) وفى رواية أو لخالد بن عبدالله القسرى، وهذا أقرب من الصحة.

والمجوس كما سبق قوم يعبدون النار، وأصل آبائه وأجداده منهم، وربما رأى فى صباه بيت النار العظيم فى بلده، يدخله أهله وجيرانه، للعبادة، وكانت اللغة التى يتخاطبون بها هى اللغة الفهلوية وهى اللغة الفارسية القديمة.

أما ولادة عبدالله بن المقفع ففيها شك، ويرى بعض مؤرخى الأدب أنه ولد فى سنة ١٠٦هـ، ولكن هذا بعيد يحتمل الشك، إذ لا يعقل أن يكتب لوال من الولاة[1] قبل أن يتم الخامسة والعشرين من عمره، على أن والده كان يعمل للحجاج بن يوسف الثقفى المتوفى سنة ٩٥هـ. أيام الخليفة عبدالملك بن مروان ومدة خلافته تنحصر بين سنتى «٦٥هـ - ٨٦ هـ» ومما يؤيد ذلك أن عبدالله بن المقفع كتب لعمر بن هبيرة أيام ولايته على كرمان وعمر بن هبيرة عزله هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥هـ فلا يعقل أن يكتب لأحد من الأمراء قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين على الأقل، وإذا قدر أن مقتله سنة اثنتين وأربعين ومائة أو سنة ثلاث وأربعين ومائة كان عمره فى ذلك الحين قد قارب الستين خلافًا لمن قالوا إنه قتل وهو ابن ست وثلاثين سنة، وهذا التقدير مشكوك فيه ومنقوض، إذ لا يعقل أن يخلف ابن المقفع هذا التراث العظيم، وهذه الكنوز الثمينة من كتبه، ورسائله وكتاباته، ومترجماته وهو فى ريّق الشباب، وميعة الصبا، وأن تجمع النفوس على الاعتراف بتقدمه فى صناعة الكتابة، وقبل أن تعلو سنه، وأن تتهيأ له هذه التجاريب العظيمة فى الحياة، وهو لم يتجاوز العقد الرابع.

وإذا كنا نشك فى سنة مولده، فإننا لا نعلم بالتحقيق أين تلقى تعليمه الأول؟ أفى بلدة «جور» التى نشأ بها أم فى البصرة التى انتقل إليها؟ ولكن الراجح أنه لازم بلده حتى امتلأ بالثقافة الفارسية مما لا يتهيأ له أن يثقفها فى البصرة، تلك المدينة العربيّة التى تعج بالعلماء والأدباء، القدامى منهم والمحدثون، ويعتبرها

(١) يقال أن ابن المقفع كتب لدارد بن عمر بن هبيرة. وقيل ليزيد بن عمر بن هبيرة، وكان واليًا على العراق لمروان بن محمد ثم كتب لأخيه دارد من بعده.

تاريخ الأدب العربى حلبة[1] العرب فى هذا العصر، ومجمع الروّاد والفقهاء والرواة، وأصحاب اللغة وحاضرة البر والبحر، وقرارة «المربد»[2] منتدى العلماء والخطباء والشعراء فكان لذلك أثر قوىّ فيما بعد لتهيئته لأن يصير من أكبر كتاب العربية، وأشهر علمائها وأدبائها، وأول المترجمين لها من اللغات الأجنبية.

والأرجح عندى أن والده توطن «البصرة» بعد أن أصبح ابنه عبد الله شابا يافعًا، وأنه أخذ الفصاحة عن «ثور بن يزيد الأعرابى» الذى كان يفد على «البصرة» ليتصل بآل سليمان بن على عم الخليفة أبى جعفر المنصور كما اتصل ابن المقفع بآل «الأهتم»، وهم أهل فصاحة ولسن يغترف من بلاغتهم ما شاء، حيث نشأ خالد بن صفوان، وشبيب بن شيبة الاهتميان وهما من هما فصاحة وبيانا.

على أن حرص والده على تأديب ولده كان شديدًا، فكان يجمع له العلماء والأدباء والرواة من أجلاء المسلمين وعلمائهم يتحدث إليهم، ويستمع منهم حتى امتلأ بألوان الثقافة العربية والإسلامية.

أضف إلى ذلك ما رآه فى عصره من قيام دولة فارسية بروحها، عربيّة بمظاهرها ومن سقوط قيادات العرب، ونشوء الشعوبيّة، والاستسلام لأبناء خراسان ومن إمعان العباسيين فى إرهاق الرعية، وجباية الأموال، وانتشار الترف حتى تجاوز مداه، وتبدل الأخلاق حتى لم يبق للدين تلك الروعة التى كانت له فى فجر الإسلام أيام الخلفاء الراشدين وأوائل بنى أمية.

كل هذا شاهده نابغة العجم فى الإسلام «عبدالله بن المقفع» ومرت ذكراه على خاطره، وهو بعد رجل تام الرجولة، شديد الذكاء، يعرف مصادر هذه الأحداث ومواردها، ويقيس الماضى بالحاضر، مع أصالة رأى، وبعد نظر، ومضاء عزيمة، وقوة حجة، ونصاعة بيان، فصهرته هذه الأحداث وخلقت منه رجلاً عبقريًا ذا خطر عظيم.

---

(١) الحلبة جماعة الخيل للسباق وتستعمل مجازا فى الطائفة من عظماء الرجال.

(٢) المربد سوق من أسواق الأدب على حدود البادية قرب البصرة يجتمع فيها فصحاء العرب يخطبون ويتناشدون الأشعار وهو الذى خلف سوق عكاظ فى الجاهلية.

أسلوب ابن المقفع وثقافته

كان تمكن ابن المقفع من الآداب الفارسية على مقدار تضلعه فى الآداب العربية، فجمع بذلك بين الثقافتين، وفاق نظراءه بثقافته العربية الإسلامية الواسعة مما تتقطع دونها أعناق الرجال المعاصرين له.

وقد ساعده تمكنّه من اللغة الفارسية على أن يأتى بأساليب جديدة رائقة، وطرائف من التفكير قل أن عرفها كاتب قبله زادت من ثروة اللغة العربية.

يقول أبو هلال العسكرى فى كتاب الصناعتين: «ألم تر إلى عبد الله الكاتب» يريد ابن المقفع «كيف استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى، فحولها إلى اللسان العربى الفصيح مع الدراية التامة بوجوه الاستعمال».

ولا شك فى أن ابن المقفع حفظ القرآن الكريم، ودرس طرق إعجازه ونصاعة بيانه، وعرف محكمه ومتشابهه، وقرأ ما امتدت إليه يده من الأحاديث النبوية، ومن دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين، وأدرك معانيها، وتدبر ألفاظها ومراميها.

امتاز ابن المقفع بسلاسة أسلوبه، وجزالة ألفاظه، ووضوح معانيه، وقد بين طريقته هذه فيما قاله لأحد الكتاب من معاصريه: «إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعًا فى نبل البلاغة، فإن ذلك هى السعى الأكبر». وكان يقول: «البلاغة هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أن يحسن مثلها».

وهذا التعبير يساير الرأى الحديث فى هذا العصر بأن البلاغة هى الكلام السهل الممتنع الذى يتصور الإنسان أنه يستطيع أن يأتى بمثله، ولكنه لا يقدر على ذلك إذا أمسك القلم، وحاول أن يسطر أفكاره.

وكان يقول: «**إن خير الأدب ما حصل لك ثمره، وبان عليك أثره**» وسئل مرة: ما البلاغة؟ فقال: «اسم لمعان تجرى فى وجوه كثيرة فمنها ما يكون فى السكون، ومنها ما يكون فى الاستماع، ومنها ما يكون فى الإشارة، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون فى الحديث، ومنها ما يكون فى الاحتجاج، ومنها ما يكون خطبًا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة هذه الأبواب الوحى فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة» وكان ينصح الكتاب أن يلبسوا لكل حال لبوسها، فلكل مقام مقال، ولكل مقال مقام، فإذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنهما لا يرضيهما شىء، ورضا جميع الناس شىء لا تناله.

فإذا نظرت إلى ألفاظ ابن المقفع وجدتها مختارة اختيارًا يدل على سموّ فى الذوق حتى لا تكون مدعاة إلى الطعن فى كتابته وأدبه، وكان لا يلجأ إلى الإفاضة والإسهاب فى غير موضعهما، ولذلك رأينا كل سطر من سطور كتبه يضم حكمة غالية أو موعظة حسنة تختلف عما سبقها من حكم ومواعظ فتأتى فى كتابته كالدرر اللامعة المتألقة.

وأما التراكيب فهى موضع العجب فى رصف بعضها إلى جانب بعض على غاية الإحكام، فالكاتب يعطى من ألفاظه بمقدار ما يلبس معانيه حلة قشيبة، فيجمع بذلك بين الجزالة والوضوح والإيجاز، الذى كان يلجأ إليه، ويحرص عليه حرصًا تامًا.

وكان ابن المقفع يتوخى فى كلامه الإفهام أولا، وبلاغته فى كثرة إفهامه، وما كان ليحفل بالسجع جملة إلاّ ما أتى به بيانه عفوًا فى بعض تضاعيف كلامه، والسجع بهذا نادر فى كلامه متطفل على قلمه، فلا يلجأ إليه إلا ليحلى كلامه،

ويزين أسلوبه دون أن يشوه المعنى، ويفسد الغرض المطلوب من الفكرة، والأصل فى إنشائه هو الكلام المرسل الرشيق والصفة الغالبة على كلامه الوضوح، فإذا وجدنا بعض الغموض فى بعض تراكيبه كما فى فقرات من رسالة الصحابة وفى كتاب الأدب الصغير عذرناه؛ لأنِ هذا الغموض يرجع إلى الترجمة أحيانًا.

على أن ذلك لا يحط من شأن ابن المقفع، وحسبه أن صاحب «الفهرست» عدّه من البلغاء العشرة الأوائل، الذين يقومون على رأس أدباء العصر العباسى وكتابه.

ومن خصائصه أنه كان يحرص حرصًا واضحًا على إيصال الفكرة إلى ذهن القارئ، وأغلب الظن أن ابن المقفع تأثر فى كتابته بالأثر اليونانى والأثر الفارسى، ومن عاداته إذا كتب أن يقف فقيل له مرة فقال: «إن الكلام يزدحم فى صدرى، فأقف لتخيره».

وفى كتاب كليلة ودمنة كثير من الحكم والأفكار، التى يتأدب بها كل إنسان وتصلح لكل زمان ومكان، وتنفع أهل كل نحلة ولسان، وكله شاهد بسعة بصره فى كلام العرب، وبطول تبصره فى دراسة أحوال المجتمع.

وغنى عن البيان أن الثقافة الغالبة عليه هى الثقافة الفارسية، وأن لها تأثيرًا فى كتابته، فقد أخذ منها مالا تأباه السليقة العربيّة وأدمجه فيها، وما كان لنقاد كلامه أن يحسّنوه، لو لم يروا فيه آثار إحسان، وكان من السهل عليهم أن يزيفوه، لو بدا لهم فيه مغمز.

أما الناحية الضعيفة فى ابن المقفع، فهى كما يقول الجاحظ فى تخلفه فى علم الكلام، فقد كان يتعاطاه(١)، ولا يحسن منه قليلا أو كثيرًا. ومع هذه الدعوى يعترف الأدباء والنقاد له بغزارة علمه وكثرة روايته، وحسن ضبطه، والجاحظ نفسه يعترف له بأنه تقدّم فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة، واختراع المعانى، وابتداع السير.

---

(١) عاصر ابن المقفع نشوء علم الكلام فى الإسلام، وليس له كتاب فيه.

وهذا محمد بن سلام يقول: سمعت مشايخنا يقولون: «**لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع، ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع**».

ويقال: إن الخليل بن أحمد يجب أن يرى ابن المقفع، وابن المقفع يجب أن يرى الخليل فجمعهما بعض الكبراء، فمكثا يتحدثان ثلاثة أيام ثم افترقا. فقيل للخليل: كيف رأيت عبدالله؟ فقال: ما رأيت مثله، وعلمه أكثر من عقله، وقيل لعبد الله: كيف رأيت الخليل؟ فقال: ما رأيت مثله، وعقله أكثر من علمه. فقال بعضهم فى ذلك: صدقًا، فإن عقل الخليل أدّاه إلى أن مات أزهد الناس، وأن نقص عقل ابن المقفع أداه إلى أن كتب أمان عبدالله بن على بصورة أفضت إلى قتله.

لم يكن ابن المقفع مبتكرًا لهذه الحكم المنثورة فى كتبه، ولم يكن هو أباعذريتها وإنما نقلها بأسلوبه المعجب المطرب عن غيره من حكماء الفرس والهند، وليس معنى ذلك أنه أخذ عن الماضين حكمتهم ولم يكن له كثير منها استفادها من المجتمع الذى عاش فيه، وثقفها من الأحداث التى مرت به، وأوحاها إليه ماعاناه من أبناء دهره، وما شهده من ملوكه وصعاليكه، لقد كان عصره كتابًا مفتوحًا اقتبس منه كل ما فيه من حكمة تنفع فى تقديم المعوج، وتثقيف المنحرف. هذا إلى حفاظه على تراث الأجداد، وأنه لا يسير إلى التجديد إلا بقدر معلوم.

ورأى ابن المقفع فى العرب لا يقل عن رأى الجاحظ فيهم فقد روى العيناء الهاشمى أنه كان مع بعض أصحابه بالمربد، وكان المربد حينئذ مألف الأشراف والنبلاء من العرب، إذ أقبل ابن المقفع... فبدأناه بالسلام، فردّ علينا ثم قال: «لو ملتم إلى دار نيروز، وظلها الظليل، وسورها المديد، ونسيمها العجيب، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل، فإن الذى تطلبونه لم تفلتوه، ومهما قضى الله لكم من شىء تنالوه.

فقبلنا وملنا إلى هذه الدار فلما استقر بنا المكان قال لنا: «أى الأمم أعقل؟ فنظر بعضنا إلى بعض فقلنا لعله أراد أصله من فارس. فقلنا: فارس! فقال:

ليسوا بذلك، إنهم ملكوا كثيرًا من الأرض، ووجدوا عظيمًا من الملك، وغلبوا على كثير من الخلق، ولبث فيهم عقد الأمر، فما استنبطوا شيئًا بعقولهم. ولا ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم»... قلنا فالروم!. قال: أصحاب صنعة». قلنا: فالصين!. قال: «أصحاب طرفة». قلنا فالهند!. قال: «أصحاب فلسفة». قلنا: السودان!. قال: «شر خلق الله». قلنا: الترك!. قال: «كلاب مختلسة». قلنا: الخزر!. قال: «بقر سائمة». قلنا: فقل أنت..... قال: العرب! فضحكنا...!

فقال: «أما أنى ما أردت موافقتكم، ولكن إذا فاتنى حظّى من النسبة فلن يفوتنى حظى من المعرفة.

إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها، وآثار أثرت. وأصحاب إبل وغنم، وسكان شعر وأدم،[1]، يجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويشارك فى ميسوره ومعسوره، ويصف الشىء بعقله، فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجه، ويحسّن ما يشاء فيحسن، ويقبّح ما يشاء فيقبح، أدبتهم أنفسهم، ورفعتهم هممهم، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم، فلم يزل حباء الله فيهم، وحباؤهم فى أنفسهم حتى رفع لهم الفخر، وبلغ بهم أشرف الذكر، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم ولهم قال تعالى «إنّ الأرض يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقيّن». فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم[2] ودفع الحق باللسان أكتب للجنان».

ومهما يكن من نصيب هذه القصة من الصدق أو الكذب، ومن الحق والاختلاق فإنها لاتمنع أن نقول: إن ابن المقفع كان يتعصب للعرب، ويعتقد أن أعجب الشعر هو ما صدر عن غلام بدوىّ لم ير ريفًا ولم يشبع من طعام بل يأوى إلى الفقر، ويتبع اليرابيع[3] والظباء.

---

(١) الأدم الجلد وكانوا يتخذون منه بعض خيامهم.

(٢) ضعفت حجته وأفحم.

(٣) جمع يربوع وهو حيوان يشبه الفأر قصير اليدين طويل الرجلين وله ذنب طويل.

وقد اجتمع لابن المقفع عاملان مهمان هما: ـ

١ـ عامل الثقافة الفارسية، وفيها ثقافة اليونان والهنود.

٢ـ عامل الثقافة العربيّة بجانب عامل الفصاحة والاستعداد الفطرى.

قابل عصره الجديد بهذين السلاحين القويين: سلاح الفكر الآرى، وسلاح اللسان السامى، وما هو إلاّ زمن قصير حتى طار صيته فى العلم، وشاع ذكره فى الفصاحة.

وقد يقال: إن ابن المقفع لم يحفل بما دونّه العرب من أخبارها وحكمهم، ذلك؛ لأن لهذا العمل رجالا لم يقصروا فى هذه السبيل.

وإنما أراد ـ وهو الفارسى الغاية ـ أن ينقل للعرب ما عند فارس والهند، والروم من العلوم والحكم فأتى ببضاعة جديدة إلى الأسواق العربية، وافقت هوى أربابها من عشاق الطرائف، فاقتناها من اقتناها، وانتفع بها من انتفع.

فطريقته إذا فى العربية جديدة زاد بها ثروة الآداب، ووسع بها دائرة التفكير فى أمة صبغتها عربيّة ودينها الإسلام، وخلفاؤها من بنى العباس عمّ الرسول ﷺ.

لقد نقل شيئًا من الفلسفة والعلوم القديمة، ومن الأدب والحكم، وسير ملوك الفرس، وتدبير الممالك ونظمها، وترجم لينفع العرب، وزهد كغيره من المترجمين فى نقل آداب الأمم الأخرى، فلم يترجم الإلياذة مثلا؛ لأنها لا تتفق وأذواق العرب ودينهم الذى يدعو إلى التوحيد، وعدم تعدد الآلهة فكان عمله عملاً ملائمًا لروح الأمة العربيّة وفيه يقول أبو العيناء: «كلامه صريح، ولسانه فصيح، وطبعه صحيح، كأن بيانه لؤلؤ منثور، أو روض ممطور»، ويجب ألا ننسى أن اللغة العربية هى لغة العلم والأدب والحكمة كما أنها لغة الدولة ورجالاتها الرسميين.

عبد الله بن المقفع كاتبًا

يعد مؤرخو الأدب عبدالله بن المقفع أحد روّاد الكتابة العربية، وأحد أمراء البيان العربى، وزعيم المدرسة الأولى فى النثر الفنى. فقد امتدت حياته من أواخر عهد بنى أمية إلى أوائل عهد العباسيين، وفى هذه الفترة اتخذ الأدباء الكتابة صناعة، بعد أن كانت فى صدر الاسلام وفجره إملاء من الخلفاء والأمراء لتمكنهم من البيان، ورسوخ ملكة البلاغة والارتجال فيهم، أسوة بالرسول ﷺ، والخلفاء الراشدين.

ثم لما اتسعت رقعة المملكة العربية الإسلامية، واستقرت أمور الدولة وازدادت الأعمال، وشغل الخلفاء والأمراء عن الإملاء، وعن أن يلوا الكتابة بأنفسهم، فعهدوا إلى كبار الكتاب الذين توافروا عليها حتى أوشكت فى أواخر دولة بنى أمية أن تكون صناعة لها أصولها وفروعها المتشعبة بما أدخله عليها أبناء الفرس والموالى من الكتاب وخاصة بعد نقل الدواوين إلى اللغة العربيّة.

كان كثير من هؤلاء الكتاب يعرفون اللغة الأجنبية كالفارسية، أو اليابانية، أو السريانية، أو الهندية، وهى لغات أمم ذات علوم وحضارة، ونظام ورسوم، مما لا عهد للعرب بها من قبل.

ومن هؤلاء الكتاب سالم مولى هشام بن عبدالملك أحد الواضعين لنظام الرسائل، وأستاذ عبدالحميد الكاتب، الذى وضع لها رسومًا خاصة من إيجاز مرة، وإطناب مرة أخرى، ثم صديقه الحميم عبدالله بن المقفع الذى وصل فى كتابة الرسائل إلى غاية بعيدة فى البلاغة والبراعة والوضوح فى صدر الدولة العباسية.

وكانت رسائل الدولة تصدر من ديوان الرسائل وإليه ترد من الأقطار المختلفة، وكان لا يتولاها إلا فطاحل البلغاء، وكبار الكتاب، وأعلام المبرزين منهم، وأهل العلم والمعرفة بضروب السياسة ومراسم الملوك أمثال ابن المقفع وعبدالحميد وغيرهما من العناية بصوغ عباراتها، وتناسق أوضاعها وقوة حجمها، وفصاحة أسلوبها، ووضوح معانيها بعيدة عن زخرف اللفظ والمحسنات البديعية.

لبث عبدالله بن المقفع فى الدولة الأموية نحو خمس وعشرين سنة كانت مرحلة كلها تحصيل وتأمل ومراقبة اتصل فى أثنائها بصديقه عبدالحميد ابن يحيى الكاتب، ثم لبث فى الدولة العباسية عشر سنين كانت مرحلة الإنتاج الفكرى، وكان مثالاً لمن بعده يتبع ويقاس عليه، وهو بذلك قد فتح أبواب القول فى كل معنى من المعانى، وفى كل لون من ألوان الجد والهذل وفى كل مجال من الإيجاز والإطناب.

ويمتاز أسلوبه بغلبة القياس المنطقى، والتصورات الدقيقة، وترى ذلك أكثر وضوحًا فى رسائله فى الأدب والأخلاق والحكمة. أما أسلوبه فى كتاب كليلة ودمنة فقد ارتفع إلى الدرجة، التى جعلته أثرًا عربيًا ممتازًا، وهو بهذا أول من وجه النثر الفنى إلى الكتابة القصصية بمثل هذه القوة القادرة المتمكنة من اللغة العربية وآدابها.

وإنك لتقرأ الفصل المطوّل من كتب ابن المقفع، فلا تجد فيه سجعة مستكرهة، أو ازدواجًا متكلفًا، مع سهولة ألفاظه التى لا تلطف على الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فى إيجاز واف بالمعنى إذا وازناه بكلام الجاحظ، والحسن بن وهب، وهذه الخصائص الأدبية والفنية تنطق بنباهة ابن المقفع، وعلو مكانته فى الكتابة، ورسوخ قدمه فى هذا الفنّ.

أما الصور الفنية الرائعة التى تتألف من ألوان يعرفها الناس فقلّ من يجيد تركيبها وتنسيقها مثل ابن المقفع، فتأتى رائعة تأخذ بالعقول والألباب.

وأما الرسائل المطولة فى الأغراض السياسية، والخلقية والعملية وفى الوصايا ونحوها فهى من ابتداع عبدالحميد، وابن المقفع وحليتهما، وإنما تعتبر هذه الرسائل مقدمات وطلائع لعصر التأليف والتدوين فى زمن أبى جعفر المنصور،

وما أشبه تلك الرسائل فى زماننا بالمقالات السياسية، والاقتصادية التى تنشر فى الجرائد والمجلات، وبالتقريرات والمذكرات التى يكتبها كبار الكتاب وولاة الأمور فى الحالات الخطيرة، وتنشر للملأ لتقرير مغزاها فى النفوس.

وأخص ما امتازت به الكتابة العربية عند ابن المقفع أن الرسائل كانت تشتمل فى أسلوبها على ما يرجع إلى ربط الأمور بأسبابها، واستنباط النتائج من مقدماتها وردّ الأشباه إلى نظائرها.

وتلك طريقة فارسية بها تنتقل من سهل إلى أسهل مع تركيب فى المعانى، وتهذيب فى التراكيب.

وقد امتاز أسلوب ابن المقفع، وسهل بن هارون، وعمر بن مسعدة، والجاحظ بالإيجاز والإطناب بحسب مقتضى الحال، واختص الجاحظ بالبسط فى أغلب ما يكتب؛ لأنه إنما ينشر علمًا وأدبًا، ويشرح معارف وحقائق ويحاجّ ويجادل، فليس له غنى عن التوسع فى فنون الكلام.

ومما ساعد الكتاب على هذه الصناعة وتنافسهم فيها أن منزلتها عند الخلفاء والأمراء ترتفع إلى مستوى الوزراء، وعلى العكس من ذلك الشعراء، فقلما رفعوا شاعرا لشعره؛ لأن الشعر خيال وحسّ، والكتابة عقل وحقيقة، وحاجة الممالك إلى العقول والحقائق أكثر من احتياجها إلى العواطف والإحساسات، والكتاب ألسنة الخلفاء والأمراء والمعبرون عنهم، فهم يتراسلون فى جباية خراج أو سدّ ثغر، أو عمارة بلاد، أو إصلاح فساد، أو تحريض على الجهاد، أو احتجاج على فئة، أو دعاء إلى لغة، أو نهى عن فرقة، أو تهنئة بعطية، أو تعزية برزية، أو مشكلات ذلك من جلائل الخطوب التى يحتاجون فيها إلى أن يكون كتّابهم ذوى آداب كثيرة، ومعارف واسعة.

من هذا كله نرى امتياز عبدالله بن المقفع فى رسائله وكتبه «كرسائل الخميس» التى كانت تقرأ فى خراسان على شيعة بن هاشم، وكتابة عهود الولاة والقضاة والأمان من الخليفة، وغير ذلك حتى أصبح معدودًا على رأس الطبقة الأولى الذين أدركوا الدولتين الأموية والعباسية، وكان لهم أثر واضح فى الكتابة من

حيث الخيال، وذكاء القريحة، فتخير شريف المعانى، وطرح حوشىّ الألفاظ وعنى بالتنميق والرصف، وافتن فى المقدمات والبدء والختام وضمن كلامه بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال والحكم والمصطلحات العلمية والإرشادات التاريخية مما جعله فى مقدمة الكتاب النابغين فى هذا العصر.

عبدالله بن المقفع مترجماً ومؤلفاً

اشتدت حاجة الدولة العباسية إلى التدوين لاتساع الممالك الإسلامية وتعدد الوقائع والحوادث، التى لم يكن لها نظير فيما سبق، ولدخول كثير من الأمم المتحضرة، فهب العلماء والأدباء تهذيب ما كتب فى الصحف المتفرقة وما حفظوه فى الصدور، ورتبوه، وبوّبوه، وصنّفوه كتبًا.

وكان من أقوى الأسباب فى إقبال العلماء على التصنيف حث الخليفة أبى جعفر المنصور عليه، وحمله الأئمة والفقهاء على جمع الحديث والفقه وبذله على بخله فى سبيل ذلك الأموال الجزيلة.

لم يقتصر الخليفة المنصور على معاضدة العلوم الإسلامية، بل شجع العلماء والمترجمين من الفرس، والسريان أن ينقلوا إلى العربيّة من الفارسية واليونانية فنون الطب والسياسة والحكمة، والفلك والآداب، والمنطق والفلسفة.

وممن اتصل بهم الخليفة المنصور، عبدالله بن المقفع أول مترجم من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية لتمكنه من اللغتين، فترجم له كثيرًا من الكتب الفارسية واليونانية المنقولة قديمًا إلى الفارسية ، كما عرض عليه أن يترجم بعض سير ملوك الفرس ومشهورى سوّاسهم ومصلحيهم، ليتعرف النظم السياسية، وكما ترجم أيضًا بعض كتب المنطق والطبيعيات، والطب والفلسفة، والإلهيات، التى كانت قد نقلت من قبل إلى الفارسية من اليونانية والسريانية.

أما كتب الأدب التى ترجمت من الفارسية إلى العربية كرسائل عبد الحميد، وابن المقفع، وسهل بن هارون ـ فقد كانت من أبلغ ما كتب باللسان العربى، لتمكن

هؤلاء الثلاثة من اللغتين الفارسية والعربية، ولأن موضوعها لا يحتاج إلى كدّ ذهن، وكدح خاطر كغيرها من العلوم الكونية مثل الفلسفة والحكمة والمنطق، والطبيعيات والإلهيات.

وما أشبه هؤلاء الفرسان الثلاثة بكبار كُتَّاب عصرنا الحاضر، الذين تمكنوا من الثقافتين الأجنبية والعربية فنقلوا كثيرًا من الروائع أمثال أحمد لطفى السيد وعباس العقاد، ومحمد حسين هيكل وغيرهم فكانوا روّادًا لتلك النهضة الأدبيّة والعلمية الحاضرة.

والظاهر أن ابن المقفع سلك طريق الترجمة بالمعنى، وهى أسهل من الترجمة الحرفية، وأن نبوغ هذا الكاتب العبقرى فى اللغة العربية جعل لترجمته ميزة عظيمة عن ترجمة أهل زماننا، الذين أجادوا الثقافتين الأجنبية والعربية فى أوائل النهضة الحديثة، فكانت هذه الترجمة المثل الأعلى، الذى يتحدى به ابن المقفع غيره من سائر الكُتَّاب والمترجمين.

وفى كلام ابن المقفع كثير من الازدواج مما يدل على أنه كان محبًا له كقوله فى فاتحة الأدب الكبير «وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم أجسادًا وأوفر مع أجسادهم أحلامًا، وأشد قوة، وأحسن بقوتهم للأمور إتقانًا، وأطول أعمارًا، وأفضل بأعمارهم للأشياء اختيارًا».

هذا إلى أنه كان لا يحب الاستشهاد بشىء من أبيات الشعر بألفاظها. وأما معانى الشعر فقد أخذ منها كثيرًا كما سيتضح ذلك فيما بعد.

وكذلك كان لا يحفل بالسجع، وتعمده فى كتابته وما ورد منه فى كلامه إنما جاء على سبيل الإتقان وعفو الخاطر.

نقل ابن المقفع كتب أرسطو المنطقية الثلاثة المشهورة، كما ترجم مجموعة من الكتب الفارسية فى التاريخ والفلسفة نذكر منها ما يأتى: ـ

١ ـ كتاب «خداينامه» ومعناه كتاب الملوك وهو يتناول تاريخ ملوك الفرس.

٢ ـ كتاب «آيين نامه» ويتناول عادات الفرس و نظم ملوكهم ومراسمهم وهو كتاب كبير يبلغ آلافًا من الصفحات.

٣ ـ كتاب «التاج» فى سيرة أنو شروان.

٤ ـ كتاب «الدرة اليتيمة» فى الحكم والأخلاق والآداب والديانات المنقولة عن الفرس وغيرهم.

٥ ـ كتاب «مزدك»[1] فى شرح مذهبه.

٦ ـ كتاب «قاطاغورياس» فى المقالات العشر.

٧ ـ كتاب «بارى ارمنياس» فى العبادة.

٨ ـ كتاب «ايساغوجى» أو المدخل إلى كتاب المنطق لفور فوريوس الصورى.

٩ ـ كتاب «أنا لوطيقا» فى تحليل القياس.

١٠ ـ كتاب «الكيليين» وهو من الكتب المعظمة عند الفرس وفيه سير ملوكهم.

والذى يهمنا كتبه الأدبية الأخرى فى الأدب والاجتماع والسياسة، والإخوانيات نذكر منها ما يلى: ـ

١ ـ رسالة الصحابة.

٢ ـ كتاب الأدب الصغير.

٣ ـ كتاب الأدب الكبير.

٤ ـ كتاب آداب تعليم الصغير المسمى «الأدب الوجيز للولد الصغير».

٥ ـ كتاب «كليلة ودمنة».

لم يبق من هذه الأسفار سوى كتاب كليلة ودمنة مع ما ألفه من الأدب الصغير، والأدب الكبير، وكتاب اليتيمة» وهذه كلها من الرسائل اليتيمات اللواتى لا نظير

(١) مزدك رجل إيرانى دعا إلى مذهب غايته نزع الخلاف بين الناس بجعل الحق مشاعًا بينهم قتل سنة ٥٣١م.

لها ولا شبيه؛ لأنها جمعت أركان البلاغة، ومنها استقى البلغاء بلاغتهم، والناس مجمعون على تقدمها؛ لأنها نهاية المختار من الكلام مع حسن التأليف والنظام، لم يتقدمها شىء قبلها وخاصة اليتيمة وكتاب «كليلة ودمنة».

ومن خصائص ابن المقفع أنك إذا تصفحت كلام الأدباء وكتاباتهم وعرفت أنه لم يكن لمتقدم ولا لمتأخر منهم نقل إلى اللسان العربى شيئًا فى الأدب أو العلم لا تحس فيه أثر اللغة المنقول عنها إلا ابن المقفع، لأن الترجمة غالبة عليه فى أول حياته.

وما أشبهه فى ذلك ببعض الكتاب فى عصرنا الحاضر مثل أحمد حسن الزيات صاحب «آلام فرتر» فإنه صاغها صياغة عربيّة تكاد تنسى أصلها الألمانى، ومثل مصطفى لطفى المنفلوطى فى كثير من قصصه المترجمة من الفرنسية إلى العربية مثل «الفضيلة» و«الشاعر» و«ماجدولين».

على أن عبدالله بن المقفع بذَّ البلغاء فى ناحيتى الترجمة والتأليف، واختار أن يترجم لأول نشأته ماينقص هذه اللغة العربية التى أحبّها، وكان ذلك سببًا فى خلوده والإعجاب به.

وكان يعتقد اعتقادًا جازمًا أن الحضارة العربية لا تتفوق إلاّ إذا أدمجت فيها ما عملته عقول الأمم قبلها، وأن الجديد صنو القديم يتساندان ويتكافئان، وفى هذا المعنى يقول أمير الشعراء:

لا عزّ للأقدام حتى ينهضوا بقوادم من أمسهم وخوافى

أ ـ رسالة الصحابة

أما رسالة الصحابة فتدور حول نظام الجند والقضاء والخراج بنوع خاص، وقد بسط صاحبها فيها القول فى الإدارة والسياسة والعسكرية.

كتب ابن المقفع هذه الرسالة لأمير من الأمراء المؤمنين يقصد به «أبا جعفر المنصور» على أرجح الأقوال؛ لأنه يذكر دولة بنى العباس وقد استقرت، ويذكر «أبا العباس السفاح» ويترحم عليه. أما المقصود من الصحابة فهم صحابة المنصور والملتفون حوله، تعرض ابن المقفع فى هذه الرسالة لحالة الجنود الخراسانيين الذين كانوا عماد الدولة فى هذا العصر، والقائمين على حمايتها، وهم من الفرس، ولهذا تعرض ابن المقفع لهم فى كثير من مواضع الرسالة؛ لأنه فارسىّ الأصل، ونصح الحاكم بأن يبعد الجند عن الأمور المالية فى بلاده، وأيدّ رأيه بقوله: «إن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة»، كما نصح أمير المؤمنين بأن يهتم بصغار الجند «فرب صغير أعظم من كبير، ورب مرءوس أرفع ثقافة من رئيسه» وطالب بتثقيف الجند ثقافة مناسبة وتعليمهم القراءة والكتابة، وتفهم أمور الدين ودعوتهم إلى الاعتدال وتجنب الترف والسرف والبذخ الذى لا مبرر له، وطالب ابن المقفع فى رسالته هذه إلى وضع نظام دقيق لصرف مرتبات الجند، حتى لا يجأروا بالشكوى، فتكون مدعاة إلى التمرد والخروج عن طاعة الخليفة. ونصحه بالإلمام بأحوال الجند، وتتبع حياتهم وأخبارهم حتى يجزى المحسن على إحسانه، ويعاقب المسىء على إساءته.

وقد طالب ابن المقفع أيضًا بتحسين حال القضاة، وإزالة الفوضى الماثلة فى ذلك الوقت، حيث كان الاجتهاد هو الوسيلة الأولى فى الحكم فى كثير من

القضايا، مما جعل الأحكام متنافرة، والآراء متداخلة، والاجتهادات فى القضية الواحدة متعارضة مما ينجم عنه أوخم العواقب، فيشتد التنافر بين الأفراد، وقد يستحيل هذا التنافر إلى معارك حامية تراق فيها الدماء وتهتك الأعراض.

واقترح الكاتب أن ترفع إلى أمير المؤمنين كل قضية يختلف فيها القضاة حتى يقضى فيها برأيه، ويرسله إلى شتى الأقطار والأمصار.

وهكذا رسم ابن المقفع الخطوط الرئيسية لصلاح المجتمع، ورفع مستوى الجند والخراج والقضاء بنوع خاص، ولم يكن عنيفًا فى أسلوبه، ثائرًا فى عباراته، وإنما كان يتوخىّ الأصالة فى الرأى والسّداد فى الفكر، والرسالة بصفة خاصة تدل على سعة ثقافته، وحسن معالجته للأمور، بما اتصف به من حكمة ورويّة.

ب ـ كتاب الأدب الصغير

وأما كتاب الأدب الصغير، فيشتمل على جمل موجزة أشبه ما تكون بالأمثال وهى خطرات دونها ابن المقفع بعد خبرة طويلة بأمور الحياة، وتفهم للحقائق الخفية من الدنيا.

وإذا تصفحت هذا الكتاب وجدته لا يسير على منهج موحّد، وإنما هو مجموعة آراء مرتجلة لا نظام فيها، يسودها الاضطراب، وعدم الموضوعية الدقيقة، وعلى الرغم من ذلك فالكتاب مع صغره يضم حكمًا غالية فى عبارات رشيقة، وأسلوب رصين.

فمن كلامه فى الأدب الصغير: «أربعة أشياء لا يستقل منها القليل: النار، والمرض، والعدو، والدّين».

ومن الحكم التى وردت فى هذا الكتاب فى شأن حسن اختيار الصديق قوله: «إنّ ذا الرأى لا يدخل أحدًا من نفسه هذا المدخل إلا بعد الاختبار والسير، والثقة بصدق النصيحة، ووفاء المقل».

وقد اتسم أسلوب الكتاب بالحكمة السديدة برسلها، فإذا هو فيلسوف واعظ يرشد وينصح، ويرسل الحكمة، ويوضح للناس معالم الطريق السوىّ، ويبين الأخلاق المزدولة من الأخلاق الفاضلة، ويرسم القوانين والدساتير، ويصنع سننًا سليمة لنظام المعاملات بين الناس، وقد نشر هذا الكتاب أحمد زكى سنة ١٩١١م عن مخطوط ظفر به فى إحدى مكتبات الآستانة.

جـ - كتاب الأدب الكبير

وأما كتاب الأدب الكبير، فيضم حكمًا كثيرة مستمدة من الثقافتين: الفارسية واليونانية، ومن الثقافة العربيّة الإسلامية، ومن تجاريبه الخاصة، ويضم الكتاب حكمًا فى آداب السلطان ومصاحبيه من رجال السياسة ورجال الدين وغيرهم من المقربين إلى الملوك والسلاطين.

وقد بين المؤلف فى هذا الكتاب علاقة الأفراد بعضهم ببعض، وضرورة الصراحة والصدق، وعدم انتحال آراء الآخرين مع الابتعاد عن الهذل والسخرية وضرورة معاملة الأعداء بالعدل، والأصدقاء بالرضا، وحق الاختيار، وغير ذلك من الأمور التى يصلح بها شأن الفرد كى يستطيع أن يعيش فى المجتمع سعيدا.

وقد قيل إن كتاب «الأدب الكبير» هو «اليتيمة» كما قيل إنهما كتابان مختلفان، ولكلّ أدلته غير أن الرأى الثانى يؤيده ابن قتيبة فى كتابه «عيون الأخبار»، كما يؤيده ابن طيغور والباقلانى، وقد طبع الأدب الكبير معنونًا باسم «اليتيمة» خطأ ثم طبع فى مصر باسمه الحقيقى، ويظن أن اليتيمة هى الرسالة المحفوظة بدار الكتب المصرية المكتوبة بخط على الحلبى سنة ٨٤٤ هـ.

د - كتاب تعليم الصغير

وأما كتاب آداب تعليم الصغير فقد كشف عنه أحد الكُتّاب المعاصرين، ولم يكن معروفًا من قبل بعنوان «الأدب الوجيز للولد الصغير» وهو مجموعة من

النصائح والحكم التى يتزوّد بها الفتى، لتكون دستوراً له فى حياته، يعصمه من الزلل، ويحميه من الخطل، ويصرفه عن سفاف الأمور حتى ينشأ نشأة طيبة، يتزود بالثقافة التى تعينه على أن يكون فى المستقبل رجلاً فاضلاً، هذا الأديب المعاصر هو الأستاذ محمد غفرانى مدرس اللغة الفارسية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

وهذه الرسالة كانت مجهولة بين تراث ابن المقفع الأدبى، وقد فقد الأصل العربى لها، ولم يبق إلاّ ترجمة فارسية قام بها أحد أعلام الإسلام «نصر الدين الطوسى» الفيلسوف الإيرانى، وقد قام الأستاذ «محمد غفرانى» بترجمتها من الفارسية إلى العربية بأسلوب أقرب ما يكون إلى أسلوب ابن المقفع، وتضم هذه الرسالة أشتاتًا متنوعة من الأدب الرفيع من ذلك قوله: ـ «أى بنىّ! تعود الصمت، واحذر من اللغو، ولا تشرع فى الكلام من غير فهم، فإن عدم الكلام خير من الثرثرة فى أمر يتم بدونها، ولا يكون لك فى ذلك مصلحة».

ومنها قوله فى آداب المائدة:

«أى بنىّ! إذا حضرت مائدة، فلا تلق بنظرك على الموضع الذى يأتون منه بالطعام، ولا تلتفت إلى تلك الناحية، وتمالك نفسك، ولا تكن أول من يمدّ يده إلى الطعام والخوان، فيحكم كل الناس بشره نفسك، وغاية حرصك».

ومنها قوله فى نصيحة الصغير بالتواضع، والتحلى بمكارم الأخلاق: «**أى بنىّ! إذا كان لك فضل منزلة، وعلو درجة، فلا تتكبر بهما على الناس، ولا تتطاول، فتصير حقيراً، ولا قدر لك فى أعينهم، وتصبح مستحقاً للملامة، ومستوجبا المذمة، ويكون مثلك مثل من يغرى الناس به، ويعينهم على نشر معايبه**».

ويلاحظ أن أسلوب المترجم متين التراكيب، متخيّر الألفاظ، قد أصاب المعنى، لم يرتفع عن مستوى الصغير كثيرًا، جيد المطلع، لين المقطع، قد تعادلت أطرافه، واستوت تقاسيمه، ولقد كنا نتمنى أن نعثر على أصل هذه الرسالة بلغة ابن المقفع إذ فى ذلك نثر علمى كبير، وكسب أدبى عظيم.

هـ ـ كتاب كليلة ودمنة

وأما كتاب كليلة ودمنة، فهو وحده كاف لتخليد اسمه فى الأدبين العربى والغربى لما فيه من القصص الأدبى الرفيع ومن الحكم والأفكار، التى يتأدب بها كل إنسان، وتصلح لكل زمان ومكان، والكتاب شاهد صدق على سعة بصره فى كلام العرب، وطول تبصره فى دراسة أحوال المجتمع، وقد نال هذا الكتاب شهرة عالمية فى مختلف العصور؛ لأنه كنز من كنوز الحكمة البشرية السامية التى تغذى القلوب والنفوس.

لقد ترجم ابن المقفع كتبًا عدة من الفارسية إلى العربيّة من أشهرها هذا الكتاب، وأبقاها على الدهر.

وهناك روايات كثيرة عن هذا الكتاب الذى يعد فتحًا جديدًا فى الأدب القصصى الرفيع من أشهرها أن ابن المقفع ترجم هذا الكتاب من اللغة الفهلوية «الفارسية القديمة» عن اللغة الهندية «السنسكريتية» ويرى بعض أهل الفكر والأدب من المتقدمين، وكثير من أدباء الأفرنج المستشرقين أن عبدالله بن المقفع وضعه بقلمه، وأنه نحله الهند لترغيب الناس فى مطالعته، وخاصة كتب الحكمة والفلسفة التى لم يكونوا يأبهون لها إلاّ إذا أسندت إلى القدماء.

والكتاب جمع بهذا بين التأليف والابتكار والاختيار والتهذيب، وأن بعض المختار هندى، وبعضه فارسى، ويعد المعلم الأول لكل ذى حكمة وبيان، وهو هندى الأصل وضعه «بيدبا» الفيلسوف الهندى، ولكن الفرس زادوا فيه وصبغوه صبغة فارسية.

ترجم هذا الكتاب إلى بعض اللغات الأوروبيّة كالإسبانية، والِلاتينية فى القرن الثالث عشر الميلادى، وانتقل بذلك إلى البلاد الأوروبيّة المختلفة فترجم إلى الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والروسية الحديثة، وكان النواة التى نشأ من حولها الأدب القصصى عن الحيوان والطير، وكان له أثر فى كتّاب العصر الحاضر وأدبائه، كما كان له أثر فى أشعار «لافونتين» ناظم الخرافات الفرنسى، كما تأثر بأمثال «لافونتين» الأديب المصرى «عثمان جلال» فنظم كتابه «العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ»، وهو تمصير لأمثال «لافونتين».

وبعد! فالكتاب بتعليمه الحكمة والأخلاق، وحسن التدبير، والسياسة فى قالب أقاصيص قصيرة خرافية جرت على ألسنة الحيوان والطير، ليوافق جميع رغبات الناس ـ يعتبر أول الكتب المطولة التى ظهرت من هذا النوع فى اللغة العربيّة، بل فى اللغات الأوروبيّة، وأن صاحبه وجه النثر الفنى إلى الكتابة القصصية المحببة للناس بمثل هذه القوة القادرة المتمكنة من اللغة وآدابها.

وهنا يجدر بنا أن نعرف شيئين أحدهما مصدر ميل ابن المقفع إلى الترجمة فى هذا الفن خاصة مع أنه فن قد لا يتلقى بالقبول من أصحاب السطوة والحياة وسياسة الدولة، والثانى مصدر بقاء هذا الكتاب واندثار غيره مما ترجمه ابن المقفع فى المنطق والحكمة والفلسفة حتى اضطر العرب أنفسهم إلى إعادة نقلها أيام الرشيد والمأمون، فأما الأمر الأول فلا نعرف له مصدرًا إلا الحالة السياسية والاجتماعية التى كانت عليها الأمة الإسلامية فى ذلك العصر من اشتعال الحروب واضطرام نيرانها، وظلم الخلفاء، عسف الأمراء والولاة، واحتياج الناس إلى ما يسترشدون به فى العلاقة بينهم وبين رعاتهم، وافتقار الملوك والأمراء إلى ما يستعينون به على سياسة الرعية، وضبط أمورها، فكان هذا الكتاب من مقتضيات العصر الذى ترجم فيه، فلم يكن من الممكن استغناء الناس عنه، أو رغبتهم عن قراءته واستظهاره والعمل بما فيه.

وأما الأمر الثانى فمصدره ما ذكره المؤرخون من أن ابن المقفع قد ترجم المنطق والفلسفة من الفارسية، وكانت قد نقلت إليها من اليونانية.

أما الأقاصيص والأمثال الخرافية التى تنسب «لإيسوب»(١) اليونانى فقد ظهر أن أكثرها أمثال شرقية أو مصرية قديمة تعلمها هذا الفيلسوف اليونانى من الشرق.

وقد وضع هذا الكتاب منذ نيف وعشرين قرنًا «لدبشليم» أحد ملوك الهند الطغاة بعد عصر الإسكندر الأكبر المقدونى، فأراد «بيدبا» الفيلسوف الهندى

(١) حكيم يونانى صاحب الأمثال والحكم وشخصيته أسطورية ومن أمثاله ما يرويه العرب عن لقمان الحكيم.

إصلاحه، فألف هذا الكتاب، جعل النصح فيه على ألسنة البهائم والطير، على عادة الهنود البراهمة فى عصورهم القديمة فإنهم كانوا يروون الحكمة على ألسنة الحيوان، لاعتقادهم بتناسخ الأرواح، وقد تضمن الكتاب خمسة عشر بابًا ومقدمة، ولم يعثر على النسخة الأصلية باللغة «السنسكريتية» لغة الهند القيمة.

ظل هذا الكتاب محفوظًا فى خزائن الهند، ثم سمع بفضله كسرى أنو شروان ملك الفرس، فانفذ إليه «روزيه» الحكيم رأس أطباء فارس إلى بلاد الهند لاستنساخه، وترجمته إلى الفارسية، فقام بعمله خير قيام، واستطاع أن ينقله من اللغة العربية عبدالله ابن المقفع أول المترجمين من اللغة الأجنبية، وزاد عليه المقدمة، ولعلّ الذى دفع ابن المقفع إلى ترجمته أنه لم يستطع أن ينقد الخليفة المنصور وبطانته نقدًا صريحًا، وهو رجل مشهور بالبطش والشدة وإعمال السيف فى رأس كل من تحدثه نفسه بخروج عليه لحرمانه من الحريّة السياسية فى ذلك العصر حتى كان من ضحاياه من قتل بالظنة، واتهم بالزندقة، فرأى أن موقفه مع المنصور يشبه إلى حدّ بعيد موقف «بيدبا» الفيلسوف مع «دبشليم» الملك، ووجد بينه وبين «بيدبا» كثيرًا من المشابهة التى يمكن أن يجلوها هذا الكتاب، ويعبر عن دخيلة نفسه، وإليك ما تمثله أبواب الكتاب: ـ

١ ـ باب الأسد والثور يمثل السلطة العليا فى الملك والحياة فى البلاط، وما يكون هناك من مكايد وسعايات.

٢ ـ باب الفحص عن أمردمنه يمثل السلطة القضائية.

٣ ـ باب الحمامة المطوقة يمثل دور إمكان الصداقة بين المتنافرين فى الطبيعة كالصداقة بين الجرذ والحمامة.

٤ ـ باب البوم والغربان يمثل السياسة الخارجية والحرب بين الملوك والأمم واستطلاع أخبار العدو.

٥ ـ باب القرد والغيلم يمثل الرجل الغبى تسنح له الفرصة فيضيعها، والرجل الذكى يقع فى ورطة فيتخلص منها بحسن عقله وعظيم تدبيره.

٦ ـ باب الناسك وابن عرس يمثل الرجل العجلان الذى لا يتروّى قبل الإقدام على عمل ما.

٧ ـ باب الجرذ والسنور يمثل دور التمييز بين من هم أصدقاء على الحقيقة ومن هم أعداء «وهو استدراك لباب الحمامة المطوقة».

٨ ـ باب الملك والطائر فنراه يمثل حال ذوى الثأرات الذين لا ينبغى أن يثق بعضهم ببعض.

٩ ـ باب الأسد وابن آوى والناسك يمثل الرجوع إلى الصداقة بعد العداوة.

١٠ ـ باب اللبوءة والأسوار(١) الشعْهر(٢) يمثل المتعفف عن الظلم والمتعظ بغيره.

١١ ـ باب ايلاذ وبلاذ وايراخت يبين أن الملك إنما يثبت بالحلم والمشاورة.

١٢ ـ باب الناسك والضيف يمثل الرجل يترك ما فى يده ليطلب غيره فلا يستطيعه، فيضيّع الأمرين.

١٣ـ باب السائح والصائغ يمثل صنع المعروف فى غير أهله.

١٤ـ باب ابن الملك و أصحابه يمثل أن كل ما يجرى على الناس إنما هو بقضاء الله وقدره.

١٥ـ باب الحمامة والثعلب مالك الحزين يمثل الرجل الذى يحاول أن ينفع الآخرين بآرائهم ثم هو لا يعمل بها.

هذه الترجمة اتخذت أساسًا لتراجم كثيرة بالسريانية والفارسية الحديثة واليونانية، العبرانية، والمغولية، والأفغانية، والتركية والملوية كما اتخذت مصدرًا أخذت عنه أوروبا جميع ما تعرفه عن هذه الأقاصيص ثم اخترع بعض الكُتَّاب حكايات وأمثالا على نسقها، ونسق ما يروونه عن أحد القدماء اليونانيين وهو «إيسوب» الذى كتب مثل هذه الأقاصيص ثم جاء على أثر ذلك «لافونتين»،

---

(١) الأسوار: الرامى بالسهام.

(٢) الموجود لفظ الشعهر وهو حيوان يفسره الثقات بابن آوى.

وفلوريان «الشاعران الفرنسيان المجيدان، ويعتبر هذا الكتاب أدبًا رمزيًا شائعًا فى الأدب الغربى، وفى الآداب العربية والشرقية، ولقيمة هذا الكتاب الأدبية نظمه «أبان بن عبد الحميد اللاحقى» فقال فى أوله: ـ

هـذا كـتـاب أدب ومـحـنـه   وهـو الـذى يـدعى كـلـيل دمـنـه

كما نظمه «أبو يعلى محمد المعروف بابن الهبارية العباسى» المتوفى سنة ٥٠٩ هـ. فقد نظم كتابًا يقع فى نحو ألفى بيت على مثال «كليلة ودمنة» اخترع حكاياته وأمثاله بنظم رقيق، وسماه «صادح والباغم» وأوله:

الحـمـد لـله الـذى حـبـانى   بـالأصـغـرين الـقـلـب والـلـسـان

وغيره كثير من كبار الأدباء مثل «أبى عبدالله محمد القرشى المعروف بابن ظفر، فقد صنف كتابًا على نسق «كليلة ودمنة» سماه «سلوان المطاع فى عدوان الأتباع» وهو كتاب بليغ العبارة شريف الوعظ، نظم وترجم إلى الفارسية ثم إلى التركية، وفى سنة ٨٥٢ هـ ألف «أحمد بن محمد الحنفى المعروف بابن عربشاه كتابًا مسجعًا على مثال «كليلة ودمنة» ولكن أكثر حكاياته منقول عن كتاب «مر زيان نامه».

وقد طبع كتاب «كليلة ودمنة» فى باريس سنة ١٨١٦م «البارون سلفستر دى ساسى» المستشرق الفرنسى الشهير، وهذه الطبعة لها الفضل الأكبر على جميع قراء اللغة العربية فى الشرق والغرب، فقد طبعته وزارة المعارف بمصر طبعة مهذبة بعد حذف حكايات العشق والمجون وغيرها مما لا يتفق مع هذا الجيل من الشباب، وقررته على طلاب المدارس الثانوية والتجهيزية، وكان له أثر فى السمّو بأساليب الكُتَّاب والأدباء المعاصرين.

ومما جعل للكتاب قيمة كبيرة اشتماله على النوادر والحكم والأمثال الجديرة بالحفظ والاعتبار فى كل فن من ضروب السياسة وأصول المعيشة على حسب ما تقضيه أحوال ذلك الزمان، وكذلك اشتماله على الخيال الرائع الباعث على السرور، والمروح للنفوس فى اختراع القصص الجميلة، والتشبيهات والاستعارات الرائعة.

وتلك أمثلة لهذه التشبيهات الرائعة:

قال ابن المقفع على لسان الثور يندم على صحبته للأسد ولولا الحين[1] ما كان مقامى عند الأسد، وهو آكل لحم، وأنا آكل عشب، فأنا فى هذه الورطة كالنحلة التى تجلس على نور النيلوفر[2]، إذ تستلذ ريحه وطعمه، فتحسبها هذه اللذة، فإذا جاء الليل، ينضم عليها، فتتلجلج فيه وتموت».

وقوله: «**لا يخفى فضل ذى العلم، وإن أخفاه كالمسك يخبأ ويستر، ثم لا يمنع ذلك رائحته أن تفوح**»

وقوله: «**الرجل ذو المروءة يكرم على غير مال، كالأسد يهاب، وإن كان رابضاً**».

وقوله: «**من صنع معروفاً لعاجل الجزاء فهو كملقى الحب للطير لا لينفعها بل لصيدها**».

كما يمتاز الكتاب بما فيه من المعانى النفسية، والانفعالات والخواطر، التى تعترى الإنسان عند اضطرابه، ووقوعه فى حيرة وارتباك أو طرب وسرور، أو حزن وندم، أو دهش وتعجب، ووصف أفاضل الناس ولئامهم، وأمثلة ذلك فى الكتاب كثيرة منها ما جاء على لسان الغراب والجرذ والظبى، لما اشتد حزنهم على السلحفاة قال الجرذ: .

«**ما أرانا نجاوز من البلاء إلا صرنا فى أشد منها، ولقد صدق الذى قال: لا يزال الإنسان مستمراً فى إقباله ما لم يعثر، فإذا عثر لج به العثار، وإن مشى فى جدد[3] الأرض**».

ومن محاسن هذا الكتاب ما فيه من جودة التقسيم، وبلاغة الإيجاز والإطناب كل فى موضعه كقوله:

---

(١) الحين بالفتح الهلاك.

(٢) النيلوفر نبت مائى له أصل يشبه أصل الجزر وساقه ملساء، وورقه عريض، وزهره متسع له رونق وجمال.

(٣) الجدد بفتحتين الأرض المستوية.

«يا بنى! إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلاَ بأربعة أشياء أما الثلاثة التى تطلب: فالسعة فى الرزق، والمنزلة فى الناس، والزاد للآخرة، وأما الأربعة التى يحتاج إليها فى ذلك هذه الثلاثة: فاكتساب المال من أحسن وجه يكون، ثم حسن القيام على ما اكتسب منه، ثم استثماره ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة، ويرضى الأهل والإخوان، فيعود عليه نفعه فى الدنيا والآخرة» ثم أخذ يشرح هذه الأقسام، ويعللها بكلام هو غاية فى البلاغة.

ومن كلامه أيضًا: **«فإنه يقال الرجال ثلاثة حازم، وأحزم منه، وعاجز فأحد الحازمين من إذا نزل به الأمر لم يدهش له، ولم يذهب قلبه شعاعًا، ولم تعِ به حيلته ومكيدته التى يرجو بها المخرج منه، وأحزم منه المتقدم ذو العدة، الذى يعرف الابتلاء قبل وقوعه، فيعظمه إعظامًا، ويحتال عليه حيلة حتى كأنه قد لزمه، فيحسم الداء قبل أن يبتلى به، ويدفع الأمر قبل وقوعه.**

وأما العاجز فهو فى تردد وتمن وأمان حتى يهلك».

ومن الحق أن يقال: إن الإطناب والتطويل فى الكتاب أكثر من الإيجاز، لزيادة الشرح للمعانى الحكيمة، وتقريرها فى نفوس القارئين من كل الطبقات، وإن ابن المقفع قد أضفى عليه ما اتسم به أسلوبه من فنّية واضحة تجلت فى اختيار ألفاظه، وانتقاء عباراته، ولكنه مع هذا لم يكن حريصًا على اللفظ بقدر حرصه على الفكرة.

وفى الكتاب أوصاف كثيرة لطباع البهائم والسباع والطيور والحشرات وشرح الأحوال معيشتها وشهواتها، وخصائصها، كما يشتمل على وصف لنظام الحكومات المطلقة، وما يشوبها من طبائع الاستبداد والفتن والهرج كما فى باب الأسد والثور وغيره، وفى ذلك فوائد تاريخية وعبره لمن اعتبر كما أنه وضع نهجًا قويمًا إذا اتبعه الحكام استطاعوا أن يسيروا بدفة البلاد نحو الأمام، وأن يكلفوا لرعيتهم الخير والرخاء، والسعادة والهناء فبين للحاكم المواضع التى يشتد فيها إذا احتاج الأمر إلى الشدة، ووضح له المواقف التى يلجأ فيها إلى اللين إذا احتاج الأمر إلى اللين، كما طالبه بأن يكون حليمًا لا يستأثر به الغضب، ولا تدركه

العجلة، فلا يتنبه إلى عواقب الأمور؛ لأن الغضب يغشى العقل بغشاوة كثيفة لا يستطيع معها الإنسان أن يتبين حقائق الأمور واضحة جلية، فإذا تحلّى الملك بهذه الصفات والأخلاق تجنب الفوضى أن تدب فى بلاده، وطالب الملوك أن يكونوا أصحاب عهد ووفاء، فإذا عاهدوا وفوا بعهدهم، وإذا قالوا صدقوا فى قولهم.

يقول ابن المقفع فى باب الملك والطائر: «**قبحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء، وويل لمن ابتلى بصحبتهم، فإنهم لا حميم لهم، ولا حريم، ولا يحبون أحداً، ولا يكرم عليهم إلا أن يطمعوا عنده فى غناء، فيقربوه عند ذلك ويكرموه، فإذا قضوا منه حاجتهم، فلا ود ولا حفاظ، ولا الإحسان يجزون به، ولا الذنب يعفون عنه... والذين إنما أمرهم الفخر والرياء والسمعة، والذين كل عظيم من الذنوب يركبونه، وهو عندهم صغير حقير هين**».

كما طالب الملك بأن يحسن اختيار معاونيه؛ لأن الرجل ضعيف بمفرده، قوىّ بغيره وبأعوانه، وكلما كان الذين يلتفون حول الملك أصحاب عقل راجح، وسياسة محنكة، وفكر ثاقب استطاع الملك أن يحكم الناس بالعدل، وأن يثق فى أن العدالة منتشرة بين ربوع بلاده».

وكان يقول: «**احذر من الخلطاء الثمانية: الكفور للنعمة الغادر بما يعهد إليه، والذى لا يؤمن الحساب والثواب والعقاب، والمفرط فى عرضه وهمه وغضبه، ومن يسخطه اليسير بغير علة، ومن لا يرضى بشىء وإن كان كثيراً جسيماً، وذو المكر الداهى الغامض مكراً، واللاهج بالزنا والخمر، والسيئ الظن المتلون المتهجم القليل الحياء**».

ثم قال: «**ينبغى للملك أن يحسن اختيار رسله ومندوبيه؛ لأنهم هم الذين يتكلمون بلسانه، ويعبرون عن رأيه، ويحملون رسالته، فلابد أن يكونوا أمناء على الرسالة مخلصين على أدائها، حريصين على المنفعة العامة دون أن يجعلوا الأغراض الشخصية تتدخل فيها**».

وقال: «**إن آفة الملوك وأصحاب السلطان استئثارهم بأقاربهم ومحاسيبهم وأهل خاصتهم، ليسندوا إليهم أرفع المناصب، وأعلى المراكز مع أن الحكمة تتطلب اختيار الرجل المناسب فى المكان المناسب**».

كما رسم ابن المقفع الخطوط الرئيسية للحكام وأصحاب السلطان رسم الخطوط الرئيسية، كذلك فى آداب الأفراد وعلاقاتهم العامة ببعضهم ببعض، وحلل صداقاتهم، وبحث فى أسباب محبتهم، والدواعى التى تدفع إلى ارتباط القلوب وتآلف النفوس، والعوامل التى تبعث على التنافر بين الناس.

ويرى ابن المقفع أن الصداقة إما أن تتناول ذات النفس أو تتناول ذات اليد، والأولى هى المصافاة، وهى أفضل من الثانية، وأما رأس المودة تزداد بها الصلة بين الأصدقاء: المؤكلة، والزيارة فى البيت، ومعرفة الأهل والحشم، ويرى أن المحبة بين الأصدقاء كالإناء من الذهب بطىء الانكسار سريع الإعادة إلى أصله إذا أصابه تلف أو كسر، أما المحبة المصطنعة فهى كالإناء من الفخار إذا أدركه أى تلف فهيهات أن يعود إلى أصله الأول، وكان يقول: «لا خير فى العيش بعد فراق الأحبة».

ورسم ابن المقفع الفضائل المثلى فقال: «**أفضل الأشياء فى الرجال كتمان السر وحفظ ما استودع منه، وإذا ابتلى الرجلان المتحابان دخل بينهما رجل خئون يفسد ما بينهما، وخير للرجل العاقل أن يطرح كلام السفهاء، ولا يصدق كلام المغرضين**».

أما المرأة عند ابن المقفع فتختلف عن الرجل تمامًا؛ لأنها لا تحفظ عهدًا، ولا ترعى ذمة، وقد كرر هذا المعنى فى أكثر أبواب الكتاب مبينًا أن العاقل من لا يسترسل إليها، ومن لا يثق بها، ومن لا يفشى إليها بسره، أو يفصح لها عن أمره. من ذلك قوله: «**إن الذهب يعرف بالنار، وأمانة الرجل بالأخذ والعطاء، وقوة الدواب تعرف بالحمل الثقيل، والنساء ليس لهن شىء يعرفن به**».

وقوله: «**قل من حرص على النساء فلم يفتضح**»

وأما رأيه فى المال فإنه ضرورة من ضرورات الحياة، وسبب من أسباب القوة، وهو إلى جانب هذا آفة من آفات المجتمع، إذا استخدم استخدامًا سيئًا، وخير الأمور الوسط، وأحسنها الاعتدال، وفى هذا المعنى يتفق ابن المقفع مع أرسطو

فى نظرية العدل والمتوسط بين التبذير والشح. وإلى جانب هذا كله نجد كثيرًا من الأفكار القيمة فى القضاء والقدر، وأمور الحياة، والزهد فى الدنيا، والإقبال على الآخرة، حتى يستطيع الإنسان أن يتبين مكانه من الحياة، وتتضح له معالم الطريق، ولا يكون مثله كمثل الذى يقذف بالحجر فى ظلمة الليل البهيم، ولا يدرى أين وقع الحجر، ولا ماذا صنع.

وهكذا نجد أن الحكم المنبثة فى كتاب كليلة ودمنة تساير كل زمان ومكان، وأننا نرددها فى حياتنا اليومية، ونقتبس منها فيما يلم بنا من ظروف الحياة، من ذلك قوله: «**المرء ترفعه مروءته من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة، وأن الارتفاع إلى المنزلة الرفيعة شديد، والانحطاط منها هيِّن كالحجر الثقيل رفعه من الأرض إلى العاتق عسر، ووضعه على الأرض هين**».

وقد صاغ هذه الحكم فى أسلوب حوارى طريف، فأضاف إلى الأدب العربى ثروة لا تقدر.

ولا بأس أن نذكر أسماء الحكايات الجميلة ذاتِ الخيال الرائع فيما يلى: ـ

١ ـ حكاية الرجل الذى نجا من مهالك كثيرة، ثم هلك بسقوط حائط عليه،

٢ ـ حكاية القرد المقلد للنجار.

٣ ـ حكاية العلجوم والسرطان.

٤ ـ حكاية الأرانب التى أصابتها القرعة لتكون غذاء للأسد فاحتالت عليه فأهلكته.

٥ ـ حكاية الثلاث سمكات.

٦ ـ حكاية إيقاع الذئب والغراب وابن آوى بالجمل.

٧ ـ حكاية السلحفاة والبطتين.

٨ ـ حكاية الخب المغفل.

٩ ـ حكاية القانص «فى باب الحمامة المطوقة».

١٠ ـ حكاية الناسك وابن عرس.

١١ ـ حكاية ابن آوى والأسد والحمار «فى باب القرد الغيلم».

١٢ ـ حكاية الجرذ والنسور.

وقد طبع هذا الكتاب طبعة مصورة جميلة فى مصر سنة ١٩٢٧م وهو بهذا التصوير يغرى النشء على القراءة، وقد قام بهذا المجهود الكاتب الأديب محمد حسن نائل المرصفى كما طبعته دار المعارف مصوراً سنة ١٩٦٠م.

وقد سمى هذا الكتاب باسم حيوانين من بنات آوى ذكرا فى الباب الأول والثانى وهما «كليلة ودمنة» وتلك التسمية من خصائص بعض علماء العرب فى أول عهدهم بالتأليف، فهم يسمون الكتب بأسماء الأشياء المذكورة فى أوائلها أو بأهم شىء فيها مثل كتاب «العين» للخليل بن أحمد؛ لأنه مبدوء بحرف العين.

وقد عارض كتاب «كليلة ودمنة» بعض الكتاب من أخصهم الكاتب البليغ «سهل ابن هارون» «صاحب بيت الحكمة «للمأمون » فى كتاب سماه «ثعلة وعفرة» اخترع قصصه وأمثاله، واشتهر كتابه هذا زمن المأمون، كما عارضه غيره من الكتاب ولكن كتبهم لم تثبت فبادت واختفت آثارها.

والظاهر من كلام ابن المقفع فى كتبه أنه كان ينزع إلى الجبر، ولا يؤمن بالاختيار؛ حيث يقول: **«قال ومنه حدث ما قدر وهو كائن، ومن ذا الذى غالب القدر؟ لقد علمت أنه لا يستطيع أحد لأحد ضراً ولا نفعاً، وأنه لا شىء من الأشياء صغيراً ولا كبيراً يصيب أحداً إلا بقضاء وقدر معلوم».**

ثم يقول: **«والقدر هو الذى يسلب الأسد قوته وشدته، ويدخله فى القبر، وهو الذى يحمل الرجل الضعيف على ظهر الفيل الهائج، وهو الذى يسلط على الحية ذات الحمة من ينزع حمتها ويلعب بها، وهو الذى يصير العاجز حازماً، ويثبط السهم المطلق، ويوسع على المقتر، ويشجع الجبان، ويجبن الشجاع، عندما تعتريه المقادير بالعلل التى اتفقت له».**

ويقول: **«وليس لك فى الذى فعلت يا بنى ذنب، ولا لابنى فيما صنع بابنك ذنب، إنما كان ذلك كله قدراً مقدوراً، وكلانا له علة وسبب، فلا نؤاخذ بما أتانا به القدر».**

وابن المقفع فى كتابه هذا إنما يحض على البر، والصدق، والوفاء والسخاء، والأمانة، واحتمال الصديق، وحسن المعاشرة، وكتم السّر وما شاكل ذلك، وينهى عن الكذب والغدر، والبخل والخيانة، والضجر من الإخوان وإفشاء السّر، والنميمة، والوشاية، والغش، والخديعة، والمكر وماجانس ذلك.

ويرى بعض النقاد أن كتابه «كليلة ودمنة» من وضع ابن المقفع؛ لأنه طافح بالشعور الإسلامى، مكتظ بالعقائد الإسلامية، حتى فى صور القضاء عند المسلمين، وآداب القضاء عندهم، هذا إلى مافيه من المعانى الإسلامية المنبثة فى قصصه من الإيمان بالله واليوم الآخر، والزهادة فى الدنيا، والرغبة فى الآخرة، وغير ذلك من المصطلحات الإسلامية.

«بعض عيوب كليلة ودمنة»

فى كتاب «كليلة ودمنة» بعض عيوب، لا تنقص من قدره، ولا تغض من قيمته الأدبية والتعليمية، وهى إلى جانب حسناته ليست إلا شيئًا تافهًا، إذ «لا تقدم الحسناء ذامًا»[1] فمن هذه العيوب: ـ

١ ـ تداخل بعض حكاياته القليلة المغزى، أو الضعيفة الارتباط بالأصل المسوقة إليه شاهدًا له، أو الضعيفة الخيال بحيث تكون غير مقبولة، أو تتضمن رذيلة بحسب عرفنا، ولو سبقت للنعى عليها، ومقت فاعلها، وذلك مثل حكاية الأرنب وملك الفيلة، ومثل حكاية ابن الملك وأصحابه، ومثل حكاية طيران الحمامة المطوقة وصواحباتها بشبكة الصياد.

٢ ـ تداخل بعض حكايات الكتاب بعضها فى بعض، مما يحمل القارئ الناشئ على أن ينسى الحكاية الأصلية، التى سبقت ـ كما فى باب الأسد والثور، وفى باب الفحص عن أمر دمنة.

٣ ـ نقص صور الخيال فى كثير من الحكايات بذكر أوصاف العقلاء فى حديث الحيوان مثل ذكر الدنانير وأوخارها، والتحدث على ألسنة الحيوان بذكر

---

(١) الذام العيب.

أوصاف العقلاء، أو ذكر الإنسان، والرجل، والمرء، وهذه هى الطريقة الشرقية التى امتازت بها قصص الهنود، والفرس، وهى تناقض الطريقة اليونانية المنسوبة إلى«إيسوب» الحكيم فى أمثاله.

٤ ـ خلو الكتاب من الشعر وهو منبع الجمال والخيال، ولعل هذا النقص راجع إلى الترجمة أكثر من رجوعه إلى وضع الكتاب، وإلاّ فما الذى كان يمنع ابن المقفع عن أن يترجم بعض الحكايات أو الحكم شعرًا، وربما كان عدوله عن ذلك لقلة عنايته بالشعر.

على أن خلوه من الشعر كان حاملا لأمثال أبان بن عبدالحميد اللاحقى أن ينظمه شعرًا، وابن الهبارية فى كتابه «الصادح والباغم» أن يجعل كتابه هذا شعرًا كله.

٥ ـ إدخال «أل» على لفظ (غير) فى مواضع كثيرة من كلام ابن المقفع فى باب الأسد والثور وفى غيره، المعروف أن (أل) لا تدخل على لفظ (غير) فى كلام فصيح يحتج به، إلاما وقع فى كلام المولدّين.

وكذلك إدخال (إلى) على (حيث) كما فى باب البوم والغربان كقوله: «يفضى إلى تشوش الأمور «وهى كلمة مولدة وقد أنكرها ابن الأنبارى، والأزهرى وهما من أئمة اللغة وكذلك صاحب القاموس، وصاحب المصباح المنير، وبعد فهذه الهنات الهينات لا تساوى شيئًا بالنسبة إلى قيمة الكتاب الأدبية إذ أنه أجمل صورة تركها لنا المتقدمون منذ اثنى عشر قرنًا.

على أننا إذا نظرنا إلى شهرة الكتاب وجدنا أنها ترجع إلى الثوب القشيب الذى كساه إياه ابن المقفع بعربيته الفصيحة حتى قضى على كثير من الكتب التى عورض بها «فأمَّا الزبد فيذهبُ جفاءً، وأمَّا ما ينفعُ النَّاسَ فيمكثُ فى الأرض».

وقد تحرى ابن المقفع فى كتابه البعد عن عقائد الهنود البراهمة وعن عقائد الفرس المثنوية وغيرهم، وكأن ذلك كان من أسباب بقاء الكتاب وليس فى تاريخ الأدب كتاب مطول كامل بعبارة كاتب واحد من الكتب التى صبرت على ثوب الزمان، وحوادث الأيام، وأيدى العابثين أقدم من هذا الكتاب.

أثر ابن المقفع فى تاريخ العرب الثقافى

لابن المقفع أثر عظيم فى تاريخ العرب الثقافى يتجلى فى النواحى الآتية: ـ

١ ـ كتب ابن المقفع ومترجماته أول محاولة صحيحة مقصودة لمزج الثقافة العربيّة بالثقافة الأجنبية «الفارسية فى الأكثر، والهندية فى الأقل».

٢ ـ معرفة العرب ـ عن طريق ابن المقفع ـ ألوانًا كثيرة من التمدين المشرقى فاكتسبوا منها كثيرًا فى السياسة والإدارة والاجتماع، فكانت كتبه من مقتضيات العصر، ولم يكن من الممكن استغناء الناس عنها.

٣ ـ تأثير هذه الكتب فى الاتجاه العقلى، ويكفى أن نذكر أربعة من العباقرة تأثروا بها: أولهم الجاحظ: وهو شيخ كتاب العرب فى تشعب ما تناوله من الموضوعات، وبالتحليل والجدل اللذين اختلطهما ابن المقفع فتأثر بهما كما تأثر بأسلوبه، وثانيهما المتنبى سيد الشعراء، فإن كثيرًا من الحكم الواردة فى ديوانه مستمدة من إنتاج ابن المقفع وخاصة كتاب كليلة ودمنة والثالث والرابع الفارابى وابن سينا، فإنهما ترسما خطوات ابن المقفع فى فلسفتهما، ويكفى أن تقرأ رسالة «أبى نصر الفارابى» فى السياسة، وكتاب السياسة «لابن سينا» لتدرك الأثر البالغ الذى تركه ابن المقفع وخاصة فيما يتعلق بالولاة، والأصدقاء، فقد اغترفا من كتاب «كليلة ودمنة»، وكتابى الأدب الصغير والأدب الكبير اغترافا، ولكنهما نظما ما أخذاه وأجرياه على المنطق ومقاييسه.

٤ـ ابن المقفع أول من ألف فى العربية كتابًا فى موضوع متعانق الفصول، وأول من أوجد وحدة التصنيف، إذ ليس لدينا كتاب يتقدم عصر ابن المقفع

نحا فيه مؤلفه منحى الوحدة فى التأليف، ولقد بقى العرب بعده زمنًا قبل أن يتعودوا هذه الوحدة فى التصنيف.

٥ ـ وجود أسلوب أدبى يحتاج إلى بسط القول فى الوصف والقصص والتحليل، والبحث، والموازنة بين الآراء، والمضى فى الجدل والإقناع.

أخـــلاقه

نشأ ابن المقفع فى بحبوحة من العيش، وكان رجلاً سريًا مترفًا من سراة أهل فارس، فقد قيل إنه لم يبق فى الإسلام من أهل فارس شريف يذكر إلا أن يكون عبدالله بن المقفع، والفضل بن سهل، فلم يكن يشكو الفقر، ولم يذق حرقة الحرمان.

وأن من كانت نشأته هكذا لابد أنها تؤثر فيه بما تسمو به نفسه من الفضائل ومكارم الأخلاق.

لقد كان ابن المقفع عفيفًا، وافر المروءة، سهل الطبع، شديد الوفاء، وكان جوادًا سديد الرأى، قد أفاد مالاً كثيرًا عندما كان يكتب لابن هبيرة أيام توليته على «كرمان» فأداه ما جبل عليه من حب الخير أن يجرى على جماعة من وجوه البصرة والكوفة مالاً كثيرًا فى كل شهر، ولم يقف جوده عند هذا الحدّ، بل أثرت عنه حوادث فى السخاء كانت مضرب المثل، دلّت على اتصافه بالأخلاق التى طالما وصفها للناس فى رسائله العامة والخاصة فانعكست على حياته وأعماله، وهو القائل: «**ابذل لصديقك دمك ومالك، ولعدوك عدلك، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد**».

ولقد كان ابن المقفع يبذل ماله لمن يحتاج إليه، ويحرص على الصداقة، ويتجانى عن الحسد والرياء، ويتمتع بمباهج الحياة، وكان يرسل النفس على سجيتها بين إخوانه، ومما روى فى ذلك أنه كانت بينه وبين عمارة بن حمزة(1)

الكاتب مودة، فأنكر أبو جعفر المنصور على عمارة شيئا، ونقله إلى الكوفة، وكان ابن المقفع إذ ذاك بها، فكان يزوره كثيرًا.

فبينما هو ذات يوم عنده، ورد على عمارة كتاب وكيله بالبصرة يعلمه أن ضيعة مجاورة لضيعته تباع، وأن ضيعته لا تصلح إن ملكها غيره، وأن أهلها قد بذلوا له ثلاثين ألف درهم، وأنه إن لم يبتعها[٢]، فالوجه أن يبيع ضيعته.

قرأ عمارة الكتاب، وقال: ما أعجب هذا! وكيلنا يشير علينا بالابتياع مع الإضاقة والإملاق، ونحن إلى البيع أحوج. ثم كتب إلى وكيله ببيع ضيعته، والانصراف إليه.

سمع ابن المقفع الكلام، وانصرف إلى منزله، وأخذ سفتجة[٣] إلى الوكيل بثلاثين ألف درهم، وكتب إليه على لسان عمارة: «إنى قد كتبت إليك ببيع ضيعتى ثم حضرنى مال، وقد أنفذت إليك سفتجة، فابتع الضيعة المجاورة لك، ولا تبع ضيعتى، وأقم مكانك وانفذ الكتاب بالاتباع إلىّ.

وجه ابن المقفع الكتاب إليه مع رسول قاصد، فورد على الوكيل، وقد باع الضيعة ففسخ البيع، وابتاع الضيعة المجاورة، وكتب إلى عمارة يذكر الأمر. فلما قرأ عمارة الكتاب أكثر التعجب، ولم يعرف السبب، وسأل عمّن حضر عند ورود الكتاب من الوكيل فقيل له: ابن المقفع فعلم أنه من فعله، فلما صار إليه بعد أيام وتحدثا قال عمارة: بعثت بتلك الثلاثين ألف درهم إلى الوكيل، وكنا إليها ها هنا أحوج. قال ابن المقفع: إن عندنا فضلا، وبعث إليه بثلاثين ألف درهم أخرى.

وبلغ ابن المقفع أن جارًا له يبيع داره فى دين ركبه، وكان يجلس فى ظلها، فقال: **«ما قمت إذا بحرمة ظل داره إن باعها معدمًا، وبت واجداً» ثم حمل إليه ثمنها، وقال، لا تبع.**

---

(١) عمارة بن حمزة أحد الكتاب المجيدين له منزلة رفيعة بين الخلفاء تولى إمارة البصرة وفارس والأهواز واليمامة والبحرين له مصنفات قيمة مفقودة توفى سنة ١٨٠هـ.

(٢) يبتعها = يشترها.

(٣) السفتجة إعطاء مال لآخر يكون له فى بلد المعطى مال فيوفيه إياه فيستفيد أمن الطريق.

أليس هذا دليلا على أن ابن المقفع كان يعمل بما يقول، وأنه إنما يهون عليه أن يبذل لصديقه دمه وماله، وأن يحب الإيثار على نفسه، ويبغض الأثرة، ويبذل المال حبًا فى البذل، لا عن رغبة فى سمعة، ولا عن رهبة من خوف الفقر، وقد يصل به الحدّ إلى الإسراف والتبذير، فقد قيل: إنه حضر مجلسًا من مجالس الطرب والقيان، وأنّ له لولعًا بهذه المجالس، فيطرب فى غير محرّم، ويتعاطى قليلا من الشراب من نبيذ العراق الذى أفتى بحله فقهاؤهم، وكان يقول: ـ

سأشرب ما شربت على طعامى ثلاثا أتركه صحيحا

فلست بقارف[1] منه آثامًا[2] ولست براكب منه قبيحا

وكان يقول: «**على العاقل ألا يكون راغبًا إلا فى إحدى ثلاث خصال: ـ**

تزود لمعاد، أو إصلاح لمعاش، أو لذة فى غير محرَم»

ثم يقول: «**لا عقل لمن أغفله عن آخرته ما يجده من لذة دنياه**»

وقد يستفزه الطرب حتى يكاد يخرج عن قانون الحكمة والاعتدال فقد قيل: ان ابن المقفع حضر مأدبة فيها «معن بن زائدة المشهور بكرمه، وفيها جوار يغنين، فغنت واحدة منهن معن بن زائدة، فأعطاها ألف دينار، وغنت جارية أخرى ابن المقفع، فأعطاها مائة ألف درهم أى عشرة آلاف دينار فقال معن بن زائدة: «لله در الفارسى، فقد برّز علينا»

وروى الأصفهانى الحكاية التالية قال:

اجتمع معن بن زائدة، وروح بن حاتم وابن المقفع عند «ابن رامين»، فلما تغنت الزرقاء، وسعدة بعث معن إليها بدرة، فصبت بين يديها، ولم يكن عند ابن المقفع دراهم، فبعث فجاء بصك ضيعته، وقال: هذه عهدة ضيعتى خذيها، فأما الدراهم فما عندى منها شىء.

---

(١) بقارف بمرتكب معصية

(٢) الآثام جزاء الذنب والإثم والعقوبة.

إذا صحت هاتان القصتان دلتا ـ على ما فيهما من إسراف ـ على عظم نفس ابن المقفع وطيب عنصره فى المكرمات، ويمكن أن نقول: إن ابن المقفع يستخفه الطرب، ويستنفره الكرم حتى ليكاد يخرج عن قانون الحكمة، وللنفس وثبات، وللطبع نزوات، ولأنه أحب أن يظهر أمام العرب بأنه ـ وهو فارسىّ ـ لا يقل كرمًا وجودًا عنهم. ولقد كان على شدة اختلاطه بأهل المجانة والخلاعة، ومشاركته إياهم فى مجالسهم ومجتمعاتهم عفيفًا لم يشتهر بما اشتهروا به من الإثم والفسوق والعصيان.

وأما وفاؤه لأصدقائه فهو مضرب المثل، فقد قيل لابن المقفع: «الصديق أحب إليك أم القريب؟

قال: القريب أيضًا يجب أن يكون صديقًا.

وقيل له: **بأى شىء يعرف الأخ؟**

قال: أن ترى وجهه منبسطًا، ولسانه بمودته ناطقًا، وقلبه ببشره طافحًا، ولقربه من المجلس مجيبًا، وعلى مجاورته فى الدار حريصًا، وله فيما بين ذلك مكرمًا».

وروى أن عبدالحميد الكاتب لقى ابن المقفع يومًا فقال له: بلغنى عنك شىء أكرهه. فقال ابن المقفع: لا أبالى!

قال عبدالحميد! **ولم؟**

قال ابن المقفع: «**لأنه إن كان باطلاً لم تقبله، وإن كان حقًا عفوت عنه**». ويقال: إن عبدالحميد بن يحيى لما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية اختفى عند ابن المقفع، وكان صديقًا حميمًا له، ففاجأهما الطلب، وقال الذين دخلوا عليهما: أيكما عبدالحميد؟ فقال كل واحد منهما: أنا، خوفًا على صاحبه وخاف عبدالحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع. بعض آخر إلى من وجهكم، ويذكر له تلك العلامات، ففعلوا، وأخذ عبدالحميد.

وهذه الحادثة تعد مثلا فى الوفاء، وإيثار الصديق على النفس، وفدائه بها.

وهناك اعتراضات على صحة هذه القصة منها أن عبدالحميد قتل بمصر فى بلدة بوصير مع مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية.

وقال سعيد بن مسلم: **قصدت الكوفة، فرأيت ابن المقفع، فرحب بى، وقال: ما تصنع ها هنا؟**

فقلت: ركبنى دين، فأحوجت إلى الانزعاج.

فقال: **هل رأيت أحداً؟**

فقلت: ابن شبرمة، وعرفته حالى.

فقال: أنا أكلم الأمين، ليضمك إلى أولاده، فيكون لك نفع.

فقال ابن المقفع: أف لذلك! أيجعلك مؤدبًا فى آخر عمرك؟ أبين منزلك؟

فعرفته، فأتانى فى اليوم الثانى، وأنا مشغول بقوم يقرءون علىّ فوضع بين يدى منديلا، فإذا فيه أسورة مكسورة، ودراهم متفرقة مقدارها أربعة آلاف درهم، فأخذت ذلك ورجعت إلى البصرة، واستغنت به.

وقد عرف ابن المقفع أيضًا برقة الحسن، ونبل العواطف، ومما يدل على ذلك أنه دعى ذات يوم إلى مائدة «عيسى بن على» عم المنصور للغداء فقال: أعز الله الأمير، لست اليوم للكرام أكيلا. فقال له: ولم؟ قال: لأنى مزكوم، والزكمة قبيحة الجوار، مانعة لعشرة الأحرار»

وتلك سمة كل أديب مرهف الحس نبيل الشعور.

أما ذكاؤه، وسداد رأيه، وعفة نفسه، فقد كان مقدمًا فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة، واختراع المعانى، وابتداع السير، ذا ذكاء فطرى، ودقة فى الملاحظة، وسعة فى المعرفة، فكان كل أولئك عناصر قوية كونت له شخصية مرموقة، وصيتًا

بعيد المدى، إذ قلما تجتمع هذه الصفات كلها فى إنسان، ويكفى بعض هذه الصفات لكى تجعل من صاحبها رجلاً مثاليًا فما بالك باكتمالها واجتماعها فى أبى عمرو عبدالله بن المقفع.

ولقد كان ابن المقفع ينفر من الحسد نفرته من الحرص فيقول: «**الحرص والحسد أصل المهالك. أما الحسد فأهلك إبليس، وأما الحرص فأخرج آدم من الجنة**».

وإن من كانت نشأته بين كبار الأمراء والساسة لابد أن تؤثر فيه هذه البيئة فضلاً عن استعداده الفطرى ـ بما تسمو به نفسه من الفضائل والمكارم.

ومما يدل على كمال عقله قوله ـ وقد استشاره عبدالله بن على[1] فيما بينه، وبين أبى جعفر المنصور ـ فأجابه ابن المقفع: «**لست أقود جيشًا، ولا أتقلّد حربًا، ولا أشير بسفك دم، وعثرة الحرب لا تقال، وغيرى أولى بالمشورة فى هذا المكان**».

---

(١) هو عبدالله بن على عم أبى جعفر المنصور وأحد الخارجين عليه بالشام والجزيرة فسير إليه أبا مسلم الخرسانى، فهزم جموعه، وفرّ عبدالله بن على إلى البصرة محتميًا بأخويه إسماعيل بن على، وسليمان بن على فطلبه المنصور منهما فلم يجيباه إلا بأمان لعبد الله كتب شروطه عبدالله بن المقفع، وكان هذا الأمان سببًا لغضب المنصور عليه كما تقول إحدى الروايات.

عقيدة ابن المقفع وديانته

روى أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب الأغانى أن ابن المقفع كان يجتمع مع إخوان له منهم: والية بن الحباب، ومطيع بن إياس، ومنقذ بن عبدالرحمن الهلالى، ويونس بن أبى فروة، وحماد عجرد، وعلى بن الخليل، وعمارة بن حمزة، وابن الزبرقان، وبشار المرعث، ويزيد بن الفيض، وجميل بن محفوظ، وأبان اللاحقى، وكانوا ندماء يجتمعون على الشراب، وقول الشعر ومطارحته، ولا يكادون يفترقون، ويهجو بعضهم بعضًا هزلاً وعمدًا، وكل هؤلاء مهتمون بدينهم، مشهورون بالزندقة. وهذه الرواية مشكوك فى صحتها؛ لأن صاحب الأغانى كثيرًا ما يصف بالاستهتار كل عظيم، ولو كان ممن ثبتت عفته وطهارته.

لهذا لا نستطيع أن نقبل كلام الأصفهانى لأول وهلة، ومن العجيب أن هذه الرواية هى رواية صاحب الأغانى عن الجاحظ فى اتهام هؤلاء الندامى فى دينهم.

وقد ذكر عبدالله المرزبان بإسناد له عن بعض الرواة قال: أدركت طبقة بالكوفة يقال لهم حلية الأرض، وأنس الزمان منهم حماد عجرد، ووالية بن الحباب، ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد وغيرهم ومعظم هؤلاء كانوا عشراء ابن المقفع.

ويخيل إلينا أن ابن المقفع كان سليم القلب، قليل الاكتراث بخصومه، قليل الابتعاد عن مواطن الريبة، حتى عدّ من جملة الزنادقة(١).

---

(١) اختلف الباحثون فى تفسير كلمة الزندقة فمنهم من يراها التهتك والاستهتار والفجور، ومنهم من يراها اتباع دين المجوس مع التظاهر بالإسلام أو عدم التظاهر به، ومنهم من يراها الإلحاد، ثم توسعوا فى مدلول الكلمة فأطلقوها على الإباحى والملحد الذى لا دين له من هذا نرى أن كلمة الزندقة مطاطة غير محدودة الدلالة، وليس لها تعريف جامع مانع.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن الاتهام بالزندقة والمروق من الدين كان من الظواهر الملحوظة فى تاريخ هذه الدولة، وكان من الحجج التى يستند إليها الأمراء، أو الخصوم فى سبيل الانتقام من أفراد معينين لدى الخلفاء أدركنا أن ابن المقفع قد يكون ضحية من هؤلاء الضحايا، ولو أمعنا النظر فيما كتبه لأدركنا أنه لم يكن زنديقًا، وليست هناك سمات فى مؤلفاته تتضح منها زندقته.

ولو كان فى ابن المقفع أدنى شبهة لكان أبو جعفر المنصور قتله على زندقته جهرة أول الأمر دون تلكؤ أو تأخير.

لقد اتهم عبدالله بن المقفع بأنه عارض القرآن الكريم فى كتاب اليتيمة، وقالوا بعد ذلك إنه تاب وأناب، وهذه التهمة كثيرًا ما وجهت إلى بعض العظماء بغية إسقاطهم فى نظر الملوك والسوقة.

ومن عجب أن كل هذه الأخبار متناقضة، كما أن كل هذه التهم لم تكن تخص ابن المقفع بمفرده، إنما كانت تخص أفرادًا كثيرين ممن كان لهم نفوذ أو شهرة يخشى منها الخصوم.

على أن ابن المقفع ليس أول من رمى بالإلحاد والزندقة، فتاريخ الفكر الإسلامى فى عصوره المختلفة يذكر كثيرًا من أخبار الذين دفع عليهم اتهامهم بهذه التهمة من نابغى الأمة، على حين أنهم كانوا مصابيح هدى ونور(١).

ولعلنا نذكر فى العصر الحديث ما اتهم به الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بمثل ما اتهم به غيره من كبار العلماء والمصلحين.

والحق أن صحة الإيمان، وحب الإسلام صفتان ماثلتان فى ابن المقفع مهما تقّول عليه المتقولون، وكان إلى هذا رجل نجدة، وأنفة ومروءة ووفاء كما كان رب جدّ وعمل، لا يستند فى أموره على الخيال، وكل اعتماده على عقله وتجاربه. وتجارب من سلف من حكماء الأمم، وكان شديد الحفاظ على شعائره، لا يحرم

---

(١) راجع مبحث الاضطهاد فى سبيل الأفكار والمذاهب فى كتاب الإسلام، والحضارة العربية للعلامة المرحوم محمد كرد على.

على نفسه الطيبات من الرزق، وليس فيه تزمت الفقهاء الجامدين، ولا استهتار الأدباء المتحللين، فهم من الدين ما فهمه منه كل عاقل. يحب من الملوك والأمراء عدلهم، وأن يعملوا فى خشية من اللّه، وخشية من الناس.

والرأى أن من اتهموا ابن المقفع فى دينه، وادعوا عليه الزندقة ليسوا إلا من المرائين، الذين يريدون التقرب من السلطان، وهم كثير فى كل دولة وهؤلاء فى كل عصر علة ركود العقل، وسبب نشوب الفتن، فعوذ بالله من شرهم، يصانعون الملوك والوزراء والرؤساء، وينكرون فضل الله على الناس، فهم يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله والله ذو الفضل العظيم.

ويقال إن ابن المقفع مر ببيت نار للمجوس بعد إسلامه فلمحه وتمثل بقول الشاعر:

يا بيت عاتكة الذى أتعزل حذر العدا وبك الفؤاد موكل

انى لأمنحك الصدود وإننى قسما إليك مع الصدود لأميل

وتلك رواية المرتضى فى ماليه، ولكن استشهاد ابن المقفع بهذين البيتين ليس دليلا قاطعًا على انحرافه.

ومما نسب إليه أنه ليلة بيت الإسلام تناول عشاءه عند الأمير عيسى بن على فأخذ بزمزم على الطعام كما يفعل المجوس فقال له الأمير: أتزمزم وأنت على عزم الإسلام؟ فقال: كرهت أن أبيت على غير دين.

فلو كان قلبه منشرحًا للإسلام معتقدًا بطلان المجوسية لما زمزم. ويروى الرواة أبياتاً من الشعر رثى بها يحيى بن زياد، وكان رأسًا فى الزندقة:

رزئنا أبا عمرو ولاحىَّ مثله فلله ريب الحادثات بمن وقع

فإن تك قد فارقتنا وتركتنا ذوى خلة مائى انسداد لها طمع

فقد جر نفعًا فقدنا لك أننا أمنا على كل الرزايا من الجزع

وينكر الأخفش أنها رثاء يحيى بن زياد وإنما هى فى رثاء ابن أبى العوجاء وهو زنديق كان يضع الحديث كذبًا على رسول الله ﷺ.

إســلام ابن المقفـع

لما استتب الأمر لبنى العباس اتصل ابن المقفع بالأمير عيسى بن على عم أبى جعفر المنصور، وكتب له وهو على كرمان، وكان من أتباع «زرادشت»[1] فقال للأمير ذات يوم: قد دخل الإسلام قلبى، وخالطته بشاشته وأريد أن أسلم على يدك. فقال الأمير: ليكن ذلك بمحضر من القواد والرؤساء، فإذا كان الغد، فاغد علىّ.

ثم حضر طعام العشىّ على مائدة الأمير، فجعل يأكل ويزمزم[2] على عادة المجوس فكلمه الأمير فى ذلك، فقال: كرهت أن أبيت على غير دين.

فلما كان اليوم الثانى أسلم على يده، وسمى عبدالله، وكنى بأبى محمد وقد كانت كنيته قبل إسلامه أبا عمر، وكان اسمه «روزبه».

ثم كتب لسليمان بن على عم المنصور أيام ولايته على البصرة، كما كان مؤدبًا لبعض أولاد إسماعيل بن على عم المنصور أيضًا، وقد عدّه الجاحظ من المعلمين الأدباء.

وإن إقامة عبدالله بن المقفع بالبصرة كان لها أكبرَ الأثر فى ثقافته الإسلامية، إذ كانت مدينة العلم والأدب، وينبوع العبقرية، وقبة الإسلام ومناره، ومجمع العلماء والبلغاء.

---

(١) «زرادشت» مصلح الديانة القديمة فى فارس ومنشىء الطائفة المجوسية عبدة النار توفى سنة ٥٨٣ ق. م.

(٢) يهمهم بكلام خفى على عادة المجوس.

وقد روى عن ابن المقفع أنه قال: شربت الخطب ريّا، ولم أضبط لها روّيا ففاضت، ثم فاضت يريد بالخطب خطب الإمام علىّ كرم الله وجهه.

وسئل ابن المقفع مرة: من أدبك؟ فقال: «**نفسى، كنت إذا رأيت حسنًا أتيته، وإذا رأيت قبحًا أبيته**».

من هذا نرى أن إسلام عبدالله بن المقفع لم يكن ابتغاء دنيا يصيبها، أو جاه يظفر به، وإنما كان عن رويّة، وعقيدة، يشهد بذلك كتبه وآثاره فهى نقية من مسحة المجوسية، خالية من لوثة الزندقة، وحيثما أجلت طرفك فى كتبه ورسائله لا تجد إلاّ أشعة الإسلام تطالعك من تضاعيف سطورها وحيثما قلبت صفحاتها لا تجد إلا معينًا فياضًا من آداب القرآن الكريم، وآداب الإسلام يتدفق بين كلماتها، وأن ما فيها من المعانى إنما انبجست من قلب عامر بالإيمان والإسلام.

وفى كلامه كثير من الشواهد الدالة على قوة إيمانه بالله واليوم الآخر من ذلك قوله: «**من كان سعيه لآخرته ودنياه، فحياته له وعليه، ومن كان سعيه لدنياه خاصة فحياته عليه، ومن كان سعيه لآخرته فحياته له**».

وقوله: «**فإنه لا ينبغى للعاقل أن يراجع فى أمر الكفور للحسنى، والجرىء على الغدر، والزاهد فى الخير، والذى لا يوقن بالآخرة**».

وفى كلام ابن المقفع كثير من الحض على مكارم الأخلاق، التى عدّها الإسلام من الفضائل، والحث على اجتناب الأخلاق الذميمة، التى عدها الإسلام من النقائض. حيث يقول: «**فكففت يدى عن الضرب والقتل، والسرقة، وزجرت نفسى عن الكبر والغضب، ونزهت قلبى عن الحقد والبغض والخيانة، وصنت لسانى عن الكذب والبهتان، والغيبة والنميمة، وكل أمر مكروه، وأضمرت فى نفسى ألا أبغى على أحد، ولا أكذب بالبعث ولا القيامة، ولا الثواب ولا العقاب، وأن لا إله إلاّ الله الفرد الصمد، يكافئ على الخير بالخير وعلى الشر بالشر، وأن لابد من المسألة والحساب**».

ومن كلامه: «لا خير فى القول إلا مع العمل، ولا فى الفقه إلا مع الورع».

ويقول أيضًا: «**الذين يطلبون مالا يقدرون عليه ثلاثة: من لا ورع له وهو يرتجّى ثواب الأبرار، والبخيل الذى يلتمس ببخله أن ينال منزلة السخى، والفاجر الذى يسفك الدماء، ويأمل أن روحه روح الشهداء**» **ثم يقول فى خاتمة كتابه** «**لا حول ولا قوة الاّ باللهّ العلى العظيم**».

هذه هى عقيدة الإسلام، وأسلوبه فيها أسلوب الإسلام، وهذا كله يؤيد أن ابن المقفع كان مسلمًا حقًا، وأن اتهامه بالزندقة لم يكن إلاّ من مخالطة المتهمين بها.

لم يؤثر عن ابن المقفع أنه خالف تعاليم الإسلام،، بل لقد خدم الشرع الإسلامى، وهو القائل: «**فأصل الأمر فى الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب، وتجتنب الكبائر، وتؤدى الفرائض، فالزم ذلك لزوم من لا غناء عنه طرفة عين، ومن يعلم أنه من حرمه هلك، ثم إن قدرت أن تجاوز ذلك قد اقتنع إلى التفقه فى الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل**».

آمن ابن المقفع بالإسلام عن عقيدة وعلم، ومازاده إيمانه إلاما أوجب عليه الإسلام من القيام بالتكاليف الشرعية، وما كان له مطمع دنيوى يتطلبه بإعلان إسلامه، وهو الرجل الذى عاشره المسلمون على مجوسيته، وعهد إليه أمراء الإسلام بشئون دواوينهم، وحفظ أسرارهم، وأعجبوا به مجوسيًا، فلما أعلن إسلامه ازدادوا به إعجابًا.

رسائل ابن المقفع فى الأدب والسياسة

أثر عن ابن المقفع عدة رسائل فى الأدب والسياسة، سمىّ بعضها باسم الغرض الذى كتبت فيه مثل رسالة الصحابة، والمراد بهم صحابة الخليفة المنصور، وتدور حول الإدارة والسياسة، والقضاء، وقد بسط فيها آراءه القيمة التى تدل على سعة ثقافته، وحسن معالجته للأمور، مبينًا أحوال الجند الخراسانيين، الذين كانوا عماد الدولة والقائمين على حمايتها، ونصح للحاكم أن يبعد الجند عن الأمور المالية إذ أن الخليفة كان يولىّ بعض قواده خراج بعض الأمصار، فكان يولى قائدًا خراج مصر، وقائدًا آخر خراج خراسان، وعلل ابن المقفع رأيه بقوله: «**إن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة**»[1].

ومن رسائله المشهورة «اليتيمة» فى طاعة السلطان يريد به أبا جعفر المنصور وتمتاز فى أسلوبها بالدقة، وتعليل الأحكام على طريقة المناطقة، وقد ضرب المثل بها لبلاغتها، وبراعة منشئها حتى قال أبو تمام فى مدح الحسن بن وهب أحد الأدباء العباسيين الذين يميلون إلى الطرب واللهو: -

ولقد شهرتك والكلام لآلئ ... تؤم[2] فيكرنى الكلام وثيّب

فكأن قسّا فى عكاظ يخطب ... وكأن ليلى الأخيلية تندب

وكثير عزة يوم بَيْن ينسب ... وابن المقفع فى اليتيمة يسهب

---

(١) المقاتلة بكسر التاء القوم المقاتلون الذين يصلحون للقتال.

(٢) توائم النجوم واللآلئ ما تشابك منها.

وقد بقيت الدرة اليتيمة معروفة مشهورة عدة قرون ثم التبست بغيرها من رسائل ابن المقفع.

وقد بين المرحوم الأستاذ المحقق أحمد أمين فى كتابه «ضحى الإسلام» أن اليتيمة كتاب آخر يختلف عن كتاب الأدب الكبير، يؤيده ابن قتيبة وابن طيفور والباقلانى.

وقال الأصمعى: «**صنف ابن المقفع كثيراً من المصنفات الحسان منها «الدرة اليتيمة»** التى لم يصنف فى فنها مثلها، وقد قيل: إنه عارض بها القرآن، ولكن هذه دعوى أنكرها الباقلانى إذ لا دليل عليها، وأصحابها أدعياء.

وقد عدّها ابن النديم من الكتب المجمع على جودتها، وهذه الرسالة تشتمل على مجالس من الأدب، وقد ورد فى هذه الرسالة اليتيمة نص فى حمل الناس على طاعة بنى العباس لمنزلتهم من رسول اللهّ ﷺ منه «فتفكروا فيما جمع الله لأمير المؤمنين فى معدنه وفى سيرته، وفيما ظاهر عليكم من النعمة والحق والحجة بذلك» ثم قال: «**فمن كان سائلا عن حق أمير المؤمنين فى معدنه، فإن أعظم حقوق الناس منزلة، وأكرمها نسبة، وأولاها بالفضل حق رسول الله ﷺ نبى الرحمة، وإمام الهدى، ووارث الكتاب، والنبوة، والمهيمن عليها، وخاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بعثه الله بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، ثم هو باعثه ليوم القيامة مقاماً محموداً، شرع الله دينه، وأتم به نوره، ومحق به رءوس الضلالة، وجبابرة الكفر، وخوله الشفاعة، وجعله فى الرفيق الأعلى ﷺ**».

وذكر الباقلانى أن «اليتيمة» رسالتان إحداهما حكم منقولة عن الفارسية والأخرى فى شىء من الديانات، ولا شىء منهما يعارض القرآن الكريم فى موضوعاته.

أما رسالة الديانات فيظن أنها كتاب «مزدك» الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسية، وليست هى اليتيمة.

ظهر من هذا أن تلك الرسائل جميعها ليس فيها ما يشعر بمعارضة القرآن الكريم فى تشريع أو أحكام أو أخبار بل هى مجرد وصايا وتجارب ذكر ابن المقفع أنه شاهد حقائقها بنفسه، وفيها حث وتحضيض للناس على طاعة السلطان.

وبعد فهذه الرسائل وما على شاكلتها من رسائل ابن المقفع، وعبد الحميد هى فى عباراتها أمهات الرسائل القديمة التى احتذاها البلغاء، وهى فى قيمتها من أركان البلاغة العربية، وفى موضوعها أول الرسائل التى طرقت باب الحكمة والأخلاق والسياسة.

وقد اتفقت كلمة العلماء على أن لابن المقفع كتابًا أو رسالة اسمها «اليتيمة» واختلفوا فيها اختلافًا كبيرًا، كما اختلفوا فى الاسم أيضًا اختلافهم فى المسمّى فقد سمّاها أبو تمام، وابن طيفور، وابن قتيبة، وابن حجر «اليتيمة» وسمّاها ابن النديم اليتيمة فى الرسائل».

وسمّاها القفطى، وابن أبى أصيبعة «اليتيمة فى طاعة السلطان» وسماها الباقلانى «الدرة اليتيمة».

أما الأدب الصغير والأدب الكبير، وكتاب الوجيز فى أدب الصغير فقد سبق الكلام عنهما، غير أن سبب تسمية الأول بالأدب الصغير أنه أصغر حجمًا من الأدب الكبير للتفرقة بينهما.

هذا كله ما عدا رسائله الإخوانية فى تهنئة أو تعزية، أو استشفاع.

شعر ابن المقفع وبداهته

اشتهر ابن المقفع بالكتابة أكثر من شهرته بالشعر، فلم يؤثر عنه شعر يذكر، لانصرافه إلى النثر، وقد كان بليغ القلم بليغ اللسان. سئل مرة: مالك لا تقول الشعر؟ فقال: «الذى أرضاه لا يجيئنى، والذى يجيئنى لا أرضاه».

والواقع الذى لا ريب فيه أن ابن المقفع إذا أراد الشعر صنعه، وقد عدّه ابن النديم من الشعراء المقلّين، وروى له صاحب الوساطة بيتًا واحدًا وهو قوله:

ويقتلنى فيقتل بكى كريمًا يموت بموته بشر كثير

وأورد له الجاحظ فى البيان والتبيين هذا البيت: ـ

فلا تلم المرء فى شأنه فربّ ملوم ولم يذنب

وقد سبق أن أبا تمام فى ديوانه الحماسة روى له ثلاثة أبيات يرثى بها يحيى ابن زياد وقيل ابن أبى العرجاء وأولها: ـ

رزئنا أبا عمرو ولا حى مثله فلله ريب الحادثات بمن وقع

وقد كان ابن المقفع لا يطيل القصائد لئلا يعرف صاحبها، و يقول صاحب كتاب الصناعتين تعليلاً لذلك: «إن المحدث يتشبه بالقديم فى القليل من الكلام، فإذا طال كلامه اختل، فعرف أنه كلام مولّد».

هذا بعض ما عثر عليه من شعر ابن المقفع، وإذا نقدنا هذه الأبيات فقد يصير بفن الشعر تبين لنا أن ابن المقفع لا ينهض إلى مستوى الشعراء المجيدين،

وبضاعته فى الشعر بضاعة مزجاة[1]، ولهذا نضرب الذكر صفحًا عن شعره، وقلما سمعنا أديبًا أجاد الصناعتين وتفوق فيهما.

ويجانب شعره أثر عنه أنه كان فصيح اللسان حاضر البديهة خطيبًا، ولكننا لم نعثر على شىء من خطبه، ولا على مايشبه الخطب، وقد رويت له كلمات تدل على شدة عارضته، وقوة بديهته،، وذلاقة لسانه، وهى غاية فى الإحكام ومطابقة الغرض، فقد قال لبعض الكتاب: «**إياك والتتبع لوحشىّ الكلام طمعًا فى نيل البلاغة، فإن ذلك هو العىّ الأكبر**».

وقد ظهر لنا فى تضاعيف ما سبق كثير من قوة إجابته، وحضور بديهته ودامغ حجته.

(١) مزجاة قليلة.

حكم ابن المقفع وآراؤه

تبين لنا مما سبق أن ابن المقفع أرسل حكمه وآراءه متأثرًا بثقافاته وتجاريبه، وأكثر هذه الثقافات تأثيرًا فى نفسه، الثقافة العربية الإسلامية ثم الثقافة الفارسية واليونانية والهندية، ومن أبرز تلك الحكم والآراء ما قاله فى شئون الفرد والجماعة، وتعظيم الجمال، وما أشاد به فى تعظيم السلطان، ورياضة النفس على الطاعة، وتقدير الأمور على أهواء السلطان.

وغنى عن البيان أن ابن المقفع قد درس الحياة العربية درسًا عميقًا، وتأمل كثيرًا فى أحوال الناس وأعمالهم، ونقب عن العلل والأسباب، وأمعن فى درس الحياة السياسية والاجتماعية فلم يرقه كثير منها كما أطلع على حكمة الهند، والفرس، والعرب وغيرهم، وتوفر على درس الأدب العربى، فكان له من مجموع ذلك معين استمد منه حكمته وثقافته، وليس لعبد الله بن المقفع نظريات علمية يدعمها بالأدلة والبراهين، شأن الفلاسفة، والحكماء، وإنما هى كلمات بليغة، ينطق بمثلها الحكماء عند التصدى للقول فى مكارم الأخلاق ومثالبها، والنصح فى معاشرة السلطان، ومصاحبة الإخوان، والسير فى مناكب الحياة المحفوفة بالمكايد والحيل.

فنراه يذهب مثلا إلى تعظيم الدين وإجلال شأنه، ويعده نعمة من الله على خلقه، ويدعو إلى حب الخير وعمله، ابتغاء الثواب فى الآخرة، ولا يرى فضلاً لعربى على عجمى إلا بالتقوى.

ثم هو يعتقد أن السلطان عماد يقوم عليه صلاح الناس والرعية فى دنياهم وآخرتهم، فيعظم شأنه، ويرى وجوب طاعته، وأن له حقًا على الناس عظيمًا، ولا

يرى أن يكون الإنسان صاحبًا للسلطان إلا بعد رياضة لنفسه على الطاعة فى المكروه عنده، والموافقة فيما خالفه، وتقدير الأمور على أهواء السلطان.

ويرى أيضًا أن الجبن مقتلة، والحرص محرمة، وأن الحسد بليّة على صاحبه، وأن الحرص والحسد أصل المهالك، كما أنه لا يسوغ الكذب ولو فى الهزل؛ لأن الكذب يسرع فى إبطال الحق، ويعتقد أن حبّ المدح، وتزكية النفس ثلمة يقتحم الناس منها على المرء، فيضحكون منه.

أما رأيه فى المرأة، فهو قليل الثقة بها، لا يراها أهلاً للرأى ولا للسّر، وأن الغرام بها مفسدة يؤتى منها الرجل والسلطان، وهو أضر شىء بالعقل والدين، وأن كيدها لا يقدر عليه أحد إلى غير ذلك مما يتمثل لك فيما يأتى:

قال ابن المقفع: «**شدة الحجاب، خير من الارتياب**»، «**ومن الذى حادث النساء فلم يصب؟**».

ثم قال: «**لا يقدر أحد أن يجرب مكر النساء، ولا يقدر على كيدهن، وكثرة حيلهن**».

ومن كلامه: «**إنما يؤتى السلطان ويفسد أمره من قبل ستة أشياء، وعدّ منها الهوى والغرام بالنساء**».

ومن كلامه أيضًا: «**أن الزوجة الصالحة لا يعدلها شىء؛ لأنها عون على أمر الدنيا والآخرة**».

ويرى فى المرأة المثالية خمسة أشياء: «العفة، وكرم الحسب والنسب، والعقل، والجمال، والموافقة لزوجها والحبّ له.

ويمكن القول إنه قد تحامل على المرأة، وقسا عليها، إذ ليست كل امرأة تنطبق عليها هذه الأوصاف فمن الفاضلات العاقلات المؤمنات الصالحات ثيبات وأبكارًا.

ويرى ابن المقفع أن العقل عنده أفضل من كل شىء، وأنه أفضل ما رزق الله تعالى عباده، وأنه الدعامة لجميع الأشياء، فهو القادر على إصلاح المعيشة فى

الدنيا، والموصل للسعادة فى الآخرة، فليس لأحد عنه غنى، ولا بغيره اكتفاء والعقل عنده مطبوع يتزايد بالتجارب، والأدب كامن فى الإنسان كمون النار فى الحجر، والعقل مال من لامال له، والعقل يجعل كل مكان وطنًا لصاحبه، فالعاقل لا غربة له، كالأسد الذى لا ينقلب إلا معه قوته، والعقل شبيه بالبحر، لا يدرك غوره.

والعقل ملكة تنير لصاحبها السبيل، وبها يميز الخبيث من الطيب، ومن حرمها خبط فى مجاهل الحياة خبط عشواء، وقد قيل: «اثنان لا ينظران: الأعمى والذى لا عقل له، وكما أن الأعمى لا ينظر السماء ونجومها، ولا ينظر البعد والقرب كذلك الذى لا عقل له، لا يعرف الحسن من القبيح، ولا المحسن من المسىء» ومن كلامه: «**لا ينبغى لذى العقل أن يحتقر أحداً من الناس حتى البهائم، ولكنه خليق أن يبلوهم، ويختبرهم، ويكون ما صنع إليهم على قدر ما يرى منهم، فقد يكون الخير عند من يظن به الشر، والشر عند من يظن به الخير**».

وأما رأى ابن المقفع فى المال وطرق اكتسابه وإنفاقه فى الغنى والفقر فيتمثل فيما يأتى: ـ «**إنما المال يطلبه صاحبه ويجمعه من كل وجه لبقاء حاله، وصلاح معاشه، ودنياه، وشرف منزلته فى أعين الناس واستغنائه عما فى أيديهم، وصرفه فى وجهه من صلة الرحم، والإنفاق على الولد، والإفضال على الإخوان، فمن كان له مال ولا ينفقه فى حقوقه كان كالذى يعدّ فقيراً، وإن كان موسراً**».

ويعتقد ابن المقفع أن المال هو الذى يكسب أعوانًا وإخوانًا، ويورث عقلاً وحظًا فى الدنيا والآخرة، وأن الفقر يحول بين ذلك كله وبين صاحبه، بل يجعل الحسن من غيره قبيحًا منه، ومن استقرى أحوال الناس وأمعن النظر فى أثر الفقر والغنى فى نفوسهم تبين له أن الغنى سبب كل سعادة وهناءة، والفقر سبب كل شقوة ونكد».

ثم يقول «**ما الإخوان، ولا الأعوان، ولا الأصدقاء إلا بالمال، ومن لا مال له إذا أراد أمراً قعد به العدم عما يريده**».

ويقول أيضًا: «**الفقر رأس كل بلاء، وجالب إلى صاحبه كل مقت، ومعدن النميمة، وإذا افتقر الرجل اتهمه من كان له مؤتمنًا، وأساء به الظن من كان يظن به حسنًا، فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعًا، وليس من خلة هى مدح إلا وهى للفقير ذم، فإن كان شجاعًا قيل أهوج، وإن كان جوادًا سمى مبذرًا**».

ثم يقول فى موضع آخر: «**الفقر خير من النعمة والسعة من أموال الناس**» ويقول أيضًا: «**الرجل ذو المروءة قد يكرم على غير مال، كالأسد يهاب وإن كان رابضًا، والغنى الذى لا مروءة له يهان وإن كان كثير المال، كالكلب لا يحفل به، وإن طوق وخلخل بالذهب**».

وليست هذه الآراء بدعًا من ابن المقفع الذى كان زينة الدولة أيام أبى جعفر المنصور. حتى قال جعفر بن يحيى: «**عبدالحميد الكاتب أصل، وسهيل بن هارون فرع، وابن المقفع ثمر، وأحمد بن يوسف زهر**».

وغير خاف أن الثمر خلاصة ذلك كله، ولقد تجلى فى كلام ابن المقفع معالم النبل والعظمة، وأن الحق طلبته، لا يبالى فى سبيله عذل عاذل، ولا صولة متطاول، ولا يصانع من يصانعه، ولا يمارى من ماراه، يتلطف فى الأداء ويربأ بنفسه عن مما حاكت المرجفون، ومناقشات المجادلين، وهو جدّ عارف بأن للعلم سياسة، كما أن للناس سياسة، وأن للأدب حدودًا لا يصح لمن يكتب فيه تعديها، وأن هواه محصور فى أن يحمل للأمة ما ينفعها، وتجمع على استحسانه، وإن تخالفت مشاربها.

أما الصور الفنية الرائعة التى تتألف من ألوان يعرفها الناس، فقل من يجيد تركيبها وتنسيقها مثل ابن المقفع، فتأتى رائعة تأخذ بمجامع العقول والألباب.

بين ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب

مما لا شك فيه أن ابن المقفع كان يتبع عبد الحميد الكاتب فى أسلوبه، وأنه الأستاذ الأول لأهل صناعة الإنشاء والرسائل الدوانية، فقد مهد سبيلها، وميز فصولها، وأطالها فى بعض الشئون، وقصرها فى بعضها الآخر، وقد أثر عن عبد الحميد الكاتب وصديقه ابن المقفع عدة رسائل فى الأدب والسياسة سمّى بعضها باسم الغرض الذى كتبت فيه مثل «رسائل الخميس» التى كانت تقرأ فى خراسان على شيعة بنى هاشم، وكتابة عهود الولاة والقضاة.

فقد أطال الكاتب البدء فيها، وجعل للتحميدات صورًا خاصة على حسب أغراضها. وكان لبلاغة عبد الحميد عمل يعجز عن السحر، ويخلب اللبّ، ويجذب النفس بما تسنى له من تنسيق صورها، فقد أتيح له سالم يتح لابن المقفع من رياسة الكتابة فى دواوين الخلفاء.

وأن من أصعب الأمور للناقد أن يوازن بين هذين الكاتبين الألمعيين(١) وأن يفضل أحدهما على صاحبه، فهما فرسا رهان، وزعيما مدرستين أدبيتين ولهما الأثر الأكبر فى تصنيع الكتابة الأدبية وتقدمها.

أما عبد الله بن المقفع فيمتاز عن صاحبه بغزارة علمه، وبترجمته لكثير من الكتب الفلسفية والمنطقية والأدبية والتاريخية، وبما وضع من قصص على ألسنة الحيوان والطير، فترك بذلك تراثًا قيمًا للأدب العربى، فتح به أبوابًا جديدة فيه، ومهد السبيل لمن أتى بعده.

---

(١) مثنى ألمعى وهو الذكىّ قال الشاعر: الألمعىّ الذى يظن كأن قد رأى وقد سمعا.

وقد يؤخذ على ابن المقفع صعوبة عباراته فى الأدبين الصغير والكبير، ولكن هذه الصعوبة سببها أنه ساق هذه العبارات مساق الفلسفة الدقيقة، والقياس المنطقى، وتجميع أفكار الفلاسفة التى قلّما تظهر للقارئ الأبعد الكدّ لعمقها، وتزاحم معانيها.

ولكن الصفة الغالبة على ابن المقفع اتباع ما سهل من الألفاظ،واجتناب وحشيَّها، والحرص على إجادة المعنى، وسلامة التراكيب، حتى وصف أسلوبه بالسهل الممتنع وخاصة فى كتاباته الإخوانية والأدبية والقصصية، وقد مرت بنا أمثلة كثيرة من كلامه توضح لنا هذه الخصائص والميزات.

آثار من حكم ابن المقفع

لابن المقفع حكم كثيرة منثورة فى تضاعيف رسائله وكتبه وقصصه، منها قوله:-

«عمل البر خير صاحب» ، «أحق ما صان الرجل أمر دينه»
«الاعتراف يؤدى إلى التوبة ، والإصرار دعاء للذنوب»
«الفكر مفتاح القلب ، الاستماع أسلم من القول»
«التواضع يورث المحبة ، من عذب لسانه كثر إخوانه»
«أنفع الكنوز العمل الصالح» ، «رأس البر الورع»
«اطلب الرحمة بالرحمة» ، «بالحزم يتم الظفر»
«من سلم الناس ربح السلامة ، ومن تعدى عليهم كسب الندامة»
«بالرسول يعرف قدر المرسل» ، «لا رأى لمن انفرد برأيه»
«المستشار مؤتمن» ، لاصلاح لرعية واليها فاسد»
«أحسن العفو ما كان عن ظيم الجرم» ، «احذر صولة اللئيم إذا شبع»
«أحسن المدح أصدقه» ، «المصيبة العظمى الرزيه فى الدين»
«من عرف ثمار الأعمال كان حقيقًا ألا يغرس مرًا» ، حلية الملوك وزراؤهم»
«الدنيا نوم نائم والدولة حلم حالم» ، «الإحسان يقطع اللسان»
«استعن بالصمت على إطفاء الغضب» ، «الصديق نسيب الروح، والأخ نسيب الجسم» ، «من عرف قدره قل إفراطه»،
«القلب أسرع تقلبًا من الطرف»
«من أبصر العاقبة فآثرها أمن الندامة» ، «أقى الجروح مضضًا جرح الآثام»

«الدنيا قد تدرك بالجهل كما تدرك بالعقل»، «من صحب السلطان لم يزل مروعًا»، «الضيعة عند الكفور لا تثمر إلا مراً»، «فساد الوالى أضر بالرعية من جدب الزمان»، «الكبر مقرون به سوء الظن»، الضعيف المحترس من العداوة أقرب إلى السلامة من القوى المغتّر» «أحسن والدَولة لك، يحسن إليك والدولة عليك» ، «الهم مرض العقل»، «استصغر المشقة إذا أدت إلى منفعة» ، «المشاورة أوثق ظهير»، «معلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم»

"

خاتمة مطافه

ظل ابن المقفع دائبًا فى عمله، ذا شخصية مهيبة كونتها عناصر قوية من ذكائه الفكرى، وغزارة عمله، ودقة ملاحظته، واتزان رأيه، وكان له حساد ومنافسون دبروا له ما دبروا حتى كانت نهاية المطاف .

لم يكن مقتل أبى محمد عبدالله بن المقفع إلاسياسيًا محضًا، وما كان قتله فى شىء من الزندقة أو الإلحاد، وفى السياسة يقتل البرىء البّر والرجل الحّر، فلم يسلم ابن المقفع من ظلم الأمراء والخلفاء على كثرة احتياطه معهم، ولامن كيد الحساد والأعداء على موالاته لهم، فلم يغن عنه ذلك شيئًا على الرغم من احتياطه وحذره، فقتل على كثرة إحسانه، فكان قتله فخرًا له وسبة فى صحائف التاريخ لقاتليه.

ويحدثنا مؤرخو الأدب عن مقتله عدة أحاديث: منها: أن أبا جعفر المنصور كتب «لعبد الله بن على» عم الخليفة المنصور سبعين أمانًا، وكان خارجًا عليه، وكل أمان يرده عبدالله بن المقفع ويقول له: «هذا ينتقض عليك، ويبطل من مكان كذا وكذا»، فلما ضجر المنصور، وطال عليه أمره، كتب إلى يزيد بن معاوية المهلبى عامله على البصرة بعدما وقف على أمر ابن المقفع، وأنه صاحبه، وكان متواريًا مخافة المنصور وما بلغه عنه ـ يقسم باللّه وبالأيمان المغلظة لئن لم يطلب عبد الله بن المقفع ولم يقتله ـ ليقتله، ومن بقى من أهل بيته من آل المهلب، فطلبه يزيد بن معاوية، فظفر به، وأراد حمله إلى المنصور، فقتل نفسه وقيل قتله والى البصرة، وأحرقه وذرىّ رماده وذلك سنة ١٤٢هـ وقبل سنة ١٤٣هـ.

فلما قتل ابن المقفع قبل عبد الله بن على أول أمان ورد عليه، وظهر ثم حمل إلى المنصور فحبسه فى بيت، ثم هدمه عليه فقتله.

والذى شق على أبى جعفر أن قال ابن المقفع فى نسخة الأمان: «**يوقع بخطه فى أسفل الأمان، وإن أنا نلت «عبدالله بن على» أو أحداً ممّن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً سراً أو علانية على الوجوه والأسباب كلّها : تصريحاً أو كتابة أو بحيلة من الحيل فأنا نفى من محمد بن على بن عبدالله ومولود لغير رشدة(١). وقد حل لجميع أمة محمد خلعى وحربى والبراءة منى، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين، ولا عهد ولا ذمة، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى، وإعانة من ناوأنى من جميع الخلق، ولاموالاة بينى وبين أحد المسلمين...**»

هذا ما جاء فى كتاب الأمان من التحرز والتحفظ والتشدد فيه مالايليق أن يوجه إلى المنصور.

ثم قال المنصور: **من يكتب له هذا الأمان؟ فقيل: ابن المقفع كاتب الأمير عيسى بن على، فقال: فما أحد يكفينيه.**

وفى الحق أن كتابة الأمان ليست السبب الحقيقى فى قتله؛ لأن المنصور أمضى هذا الأمان وأقره، ولم يردّه، وما ذنب الكاتب الذى كان حريصًا على مصلحة من يكتب له، واللّه تعالى يقول«ولا يضار» كاتب «ولا شهيد» والمنصور على ما فيه من عقل ودهاء ـ انتقم من رجل لا قوة له غير قلمه، وليس هو أقوى من أبى مسلم الخراسانى، الذى قتله وله أنصار وأعوان، ثم إن المنصور كان يعرف مكانة ابن المقفع من العلم مما ترجمه له من كتب الحكماء، ويعرف شهرته المستفيضة فى أرجاء مملكته الواسعة، ويعرف أنه زينة هذه المملكة، ولكن الاستبداد يعمى ويصم، ولو أن المنصور أراد أن يقتله لما استعان بسفيان بن معاوية.

وهناك روايات أخرى تبين أن قاتله «سفيان بن معاوية والى البصرة من قبل الخليفة المنصور بعد عزل سليمان بن على ـ لضغينة عليه فكان يهزأ به، ويسأله كثيرًا، فإذا أخطأ ضحك عليه، وقد وصل الأمر إلى سبه ابن المقفع، فامتلأ قلبه

(١) يقال: هو لرشدة ضد قولهم لزينة

غيظًا وحنقًا عليه، وكان إذا دخل عليه قال: السلام عليكما، يريد سفيان وأنفه الكبير، يضاف إلى ذلك اتهامه بالزندقة والكيد للإسلام بترجمة بعض كتب الزندقة إلى العربيّة وتلك رواية فيها شك.

ولقد كانت تلك التهمة سببًا فى إهمال المنصور تحقيق قتله عندما شكا عماه: «عيسى بن على» ، «وسليمان بن على» ـ الوالى القاتل «سفيان بن معاوية» إلى الخليفة.

وقد مثّل بقتله أشنع تمثيل فقطع إربًا إربًا، وطرح فى التنور، فكانت كلماته الأخيرة: «**إنك لتقتلنى فتقتل بقتلى ألف نفس، ولو قتل مائة مثلك لما وفوا بواحد**».

ثم أنشد هذين البيتين:-

إذا مامات مثلى مات شخصى	**يموت بموته خلق كثير..**
وأنت تموت وحدك ليس يدرى	**بموتك لا الصغير ولا الكبير**

فبكاه غلامه بكاء مرّا، وكانت هذه خاتمة مطافه.

ولا شك أن ابن المقفع ارتكب مع سفيان بن معاوية ذنوبًا لا تقال عثرتها، ولا يفضى عليها وال من أسرة عريقة فى الشرف، والنبل والنجدة ـ ولكن ذلك لا ينهض عذرًا يلتمس فى قتله، فقد كان الأليق به ألا يتقدم منه بهذه الصورة البشعة، التى تنكرها الإنسانية، وإنما يقال إن ابن المقفع لم يحسب لغير وقته حسابًا، لسلامة طويته.

رحم اللّه ابن المقفع، فلقد كانت حياته حافلة بجلائل الأعمال، وكانت كلها خيرًا وبركة على الأدب العربى بما كتب وألف وترجم، مملوءة بالعبر، والعظات، أحدثت دويّا هائلا فى جميع الأرجاء حتى تحدث الناس بعمله، ونباهة شأنه، وجليل خطره، وعظيم خلقه، فكان زينة الدولة وعلمها المفرد، وموضع الثقة والوفاء، ومناط الأمل والرجاء.

حسن اقتباس ابن المقفع وجمال تضمينه

إذا تصفحت كلام ابن المقفع، وأمعنت النظر فيه، وجدت اقتباسًا حسنًا من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وتضمينًا لكثير من أمثال العرب والفرس، ولمعانى الشعر، وأنه لا يحب الاستشهاد بشىء من أبيات الشعر العربى فى الجاهلية والإسلام، ولا بشىء من شعر المولّدين، فليس فى آثاره الأدبية شىء من ذلك الاستشهاد إلا رسالة الصحابة، فإنه استشهد فيها ببيتين من الشعر. إلا كتابه الذى كتبه إلى يحيى بن زياد، فقد استشهد فيه ببيت واحد.

وأما معانى الشعر فقد أخذ منها الشىء الكثير.

ولقوة بلاغة القرآن الكريم، وجمال معانيه اقتبس ابن المقفع كثيرا من آياته وألفاظه ومعانيه ـ ترى ذلك فى كثير مما كتب وترجم كقوله «وليس ينبغى للعاقل أن يقنط وييأس من رحمة اللّه»، وقوله: «وهو الذى يعلم سرائر العباد، وما تكنّ صدورهم» وقوله: «فيعمل على هلاكه، ويتربص به ريب المنون»، ومثل قوله فى «اليتيمة»: ومثل الرياح التى يرسلها اللّه بشرًا بين يدى رحمته، فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحًا للثمرات «وقوله:» هو اللّه الذى لا تبديل لكلماته».

وأما اقتباسه من الحديث النبوى الشريف، فقد وقع فى كلامه كثير من ألفاظ الأحاديث النبوية ومعانيها كقوله: «فإنه قد قيل: «كما تدين تدان» وهذا مأخوذ من الحديث: «البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان» ومثل قوله فى رسالة الصحابة: «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» وهو حديث صحيح ـ رواه أحمد فى مسنده وقوله: «لا عقل كالتدبير، ولا ورع ككف الأذى، ولا حسب كحسن الخلق» مأخوذ من قول الرسول صلى اللّه عليه

وسلم: «لاعقل كالتدبير، ولا ورع كالكف» رواه ابن ماجة، وقول ابن المقفع: **«لكل مقام مقال، ولكل موضع مجال»** مأخوذ من الحديث الشريف: «لكل مقام مقال، ولكل زمان رجال» وقوله: **«ما لا ترضاه لنفسك لا تصنعه لغيرك»** مأخوذ من معنى الحديث الشريف: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**.

وأما تضمينه معانى السفر والأمثال العربية وغيرها من كلام حكماء العرب فيظهر ذلك فى قوله: **«وما عاد وبال البغى إلا على صاحبه»** وهو مأخوذ من قولهم: **«من سل سيف البغى قتل به»**، ومثل قوله: **«ما ترك الأول للآخر شيئا»** مأخوذ من قول زهير: -

ما أرانا نقول إلا معارا ... أو معاداً من لفظنا مكرورا

وقوله: **«وشر الملوك الذى يخافه البرىء»** وهو مأخوذ من قول حكيم العرب أكثم بن صيفى فى خطبته عند كسرى: **«شر الملوك من خافه البرىء»** ومثل قوله: **«فرب ملوم ولم يذنب»** مأخوذ من قول حليم العرب وحكيمهم الأحنف بن قيس: **«رب ملوم لا ذنب له»**، وقوله: **«إن ضاع المعروف عند الناس، لا يضيع عند الله»** مأخوذ من بيت الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

وقوله: **«إنك إن تلتمس رضا جميع الناس تلتمس ما لا يدرك»** وهو مأخوذ من المثل: **«رضا الناس غاية لا تدرك»** وقيل إنه من كلام أكثم.

وقوله: **«ليس أضيع من جميل يصنع مع غير شاكر، ولا أخسر من صانعه...»** مأخوذ من قول زهير: -

ومن يجعل المعروف من غير أهله ... يكن حمده ذما عليه ويندم

وفى كلام ابن المقفع كثير من المصطلحات الإسلامية الشرعية كقوله: **«لم تكن له حجة... فأمر القاضى أن يقتص منه»**، وقوله: **«قد علمت أن شهادة الواحد لا توجب حكماً»** وقوله: **«هل يريد صلحنا أم يريد حربنا أم يريد الفدية؟»**.

وأمثال ذلك كثير فى كلامه ولاسيما رسالة الصحابة فإنها طافحة بالآيات القرآنية وكلام الأعلام، والمصطلحات الإسلامية الفقهية مثل الحجة، والقصاص وشهادة الواحد، والصلح، والحرب والفدية وغير ذلك.

بهذا الاقتباس وذلك التضمين اتسع خيال الكاتب، ولطف ذوقه الأدبى فتخير شريف اللفظ، واستنبط عيون المعانى، وعنى بالتنميق والرصف، فألبس كلامه حلة قشيبة زاهية، وكان فى مقدمة النابغين فى هذا العصر.

نماذج من رسائل ابن المقفع الإخوانية

لابن المقفع رسائل إخوانية بلغت ذروة البلاغة فى إيجازها، تناولت نواحى شتى اجتماعية من تهنئة أو تعزية، أو وصية وغير ذلك من شئون الأصدقاء، الذين كان يحفل بهم ويعتبرهم أقرب الناس إلى قلبه ونفسه.

فمن تلك الرسائل الأدبية الرسالة الآتية:-

قال ابن المقفع يهنئ صديقه بمولودة:-

«بارك الله فى الابنة المستفادة، وجعلها لكم زينًا، وأجرى لكم بها خيرًا، فلا تكرهها، فإنهن الأمهات، والأخوات، والعمات، والخالات، ومنهن الباقيات الصالحات، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم، ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم».

وتلك رسالة أخرى فى التعزية عن ولد:

قال ابن المقفع: **«أعظم الله على المصيبة أجرك، وأحسن على جليل الرزء ثوابك، وعجل لك الخلف فيه، وذخر لك الثواب عليه»**

ومن رسالة إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة:-

«أما بعد، فإن من قضى الحوائج لإخوانه، واستوجب بذلك الشكر عليهم - فلنفسه عمل لا لهم، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره، فهو زرع لابدّ لزارعه من حصاده، أو لعقبه من بعده.

وكتبت إليك، ولحالنا التى نحن بها فيما نذكر لك، حاجة أول ما فيها معروف تستوجب به الشكر علينا، وتدخره به الأيادى قبلنا».

ولابن المقفع فى التعزية أيضًا:

«أما بعد، فإن الآخرة والدنيا بيد الله هو يدبرهما، ويقضى فيهما مايشاء، لاراد لقضائه، ولا معقب لحكمه، فإن الله خلق الخلق بقدرته، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة، لئلا يطمع أحد من خلقه فى خلد الدنيا، ووقت لكل ميقات أجل، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، فليس أحد من خلقه إلا وهو مستيقن بالموت، لا يرجو بأن يخلصه من ذلك أحد، فاسأل الله خير المنقلب.

وبلغنى وفاة فلان، فكانت وفاته من المصائب العظام، التى يحتسب ثوابها من ربنا الذى إليه منقلبنا ومعادنا، وعليه ثوابنا.

فعليك بتقوى الله والصبر، وحسن الظن بالله، فإنه جعل لأهل الصبر صلوات منه ورحمة، وجعلهم من المهتدين».

ولابن المقفع فى السلامة:-

«أما بعد، فقد أتانى كتابك فيما أخبرتنا عنه من صلاحك، وصلاح من قبلك، وفى الذى ذكرت من ذلك نعمة مجللة عظيمة، نحمد عليها وليّها المنعم المتفضل المحمود».

ونسأله أن يلهمنا وإياك من شكره وذكره مابه مزيدها، وتأدية حقها، وسألت أن أكتب إليك بخبرنا، ونحن من عافيته وكفايته، ودفاعه على حال لو أطنبت فى ذكرها، لم يكن فى ذلك إحصاء للنعمة، ولا اعتراف لما يكنه الحق، فنرغب إلى الذى تزداد نعمه علينا فى كل يوم وليلة تظاهراً، ألا يجعل شكرنا منقوصاً ولا مدخولا[1]، وأن يرزقنا من كل نعمه كفاءها من المعرفة بفضله فيها، والعمل على أداء حقها، إنه ولى التقدير».

(١) مدخولا أى دخله شىء من الرياء ونحوه.

نماذج من الكتب الثلاثة

ننتقل بعد ذلك إلى اختيار بعض النماذج الأدبية من الأدب الصغير(١)، والأدب الكبير، وكتاب كليلة ودمنة لابن المقفع.

فمن كلامه فى كتاب الأدب الصغير قوله:-

«**ولسنا إلى مايمسك بأرماقنا(٢) من المطعم والمشرب، بأحوج منها إلى ما يثبت عقولنا من الأدب الذى به تفادت العقول، وليس غذاء الطعام بأسرع فى نبات الجسد من غذاء الأدب فى نبات العقل، ولسنا بالكد فى طلب المتاع، الذى يلتمس به دفع الضر والعيلة بأحق منا بالكد فى طلب العلم، الذى يلتمس به صلاح الدين والدنيا**».

ومن كلامه أيضًا فى الأدب الصغير:-

«**هناك أمور لا تصلح إلا بقراءتها، فلا ينفع العقل بغير ورع، ولا الحفظ بغير عقل، ولا جمال بغير حلاوة، ولا الحسب بغير أدب، ولا الغنى بغير جود، ولا السرور بغير أمن**».

ومن كلامه فى السلطان والوالى والإمام:-

قال ابن المقفع: «**إن أبواب السلطان يسعى إليها أجناس: أما الصالح فمدعوٌ، وأما الطالح فمقتحم، وأما ذو الأدب فطالب**».

---

(١) سمى الأدب الصغير لصغر حجمه بالنسبة إلى كتاب الأدب الكبير.

(٢) جمع رمق وهو بقية الروح.

«وإن السلطان لا يستطاع إلا بالوزراء والأعوان، والوزراء بالمودة والنصيحة، ولا تنفع المودة إلا مع الرأى والعفاف».

«وإن للسلطان حقًا لا يصلح أمر إلا بإرادته، ومن ذلك النصيحة له والطاعة، وكتم السّر، والذب عنه، والإيثار لهواه، وتقدير الأمور على موافقته، وحمده على الخير والشر».

ثم يقول **«وعلى الوالى الاجتهاد بالتخير للعمال والوزراء والمبالغة فى التقديم والتعهد والجزاء».**

«وعلى الإمام أن يبدأ بتعليم نفسه، وتقويمها فى السيرة والطعمة [1]، وعلى الملوك تعهد عمالهم وتفقد أمورهم».

وذكر أربعة لا يستقل منها قليل: **«النار، والمرض، والعدوّ، والدّين»** والكتاب كله مملوء بهذه الحكم الناشئة عن دراسة الحياة دراسة عميقة، وليس فى كثير من حكمه ارتباط وثيق، فقد تأتى فيه حكمة تتعلق بحالة نفسيّة، وتأتى حكمة أخرى تتعلق بالحالة السياسية أو الدينية، ثم حكمة ثالثة تتعلق بالصديق، ورابعة تدعو إلى كتمان السّر، وخامسة تبين مايجب على العاقل أن يعمله أو يجتنبه وهكذا...

تلك حكم لاتربطها رابطة، ولا تجمعها آصرة إلا أنها مجرد حكم، فمثلها كمثل العقد المؤلف من حبات مختلفة القيمة واللون والشكل لاجامع بينها إلا السمط[٢].

وفى هذا الكتاب أثر للثقافة الفارسية يتمثل فيما يتعلق بالسلطان والوالى، وأثر آخر للثقافة العربيّة الإسلامية يتمثل فى الأعمال الصالحة والترغيب فى الآخرة، والتخلق بالأخلاق الفاضلة، والكتاب بصفة عامة يسوده الشعور الإسلامى، والروح العربية.

ومن كلام ابن المقفع فى الأدب الكبير:-

«الملك ثلاثة: ملك دين، وملك حزم، وملك هوى».

ومن كلامه فى أدب النفس: **«من أراد أن يملك القلوب، ولا ينفرها ويكسب حب الناس ويأمن شرها، فعليه أن يبذل للعامة بشره، ويعلم أن انقباضه عن**

---

(١) الطعمة المأكلة، والطعمة أيضًا وجه المكسب يقال فلان عفيف الطعمة وخبيث الطعمة إذا كان ردىء المكسب.

(٢) السمط الخيط مادام فيه الخرز وإلا فهو السلك.

الناس يكسبه العداوة، وأن يلبس لهم لباسين: لباس انقباض للعامة ولباس انبساط للخاصة، وأن يحبب إلى نفسه العلم، ويعودها السخاء، فإن الجبن مقتلة، والحرص محرمة، ولا يحسد غيره، ويشعر قلبه الهيبة للأمور من غير أن يظهرها، ويجمع فى قلبه الافتقار للناس والاستغناء عنهم، وأن ينزل نفسه دون غايتها فى كل مقام ومقال، وأن يواسى أخاه فى النائبات، وإذا كانت له صنيعة فليلتمس إحياءها بأمانتها، وليصبر على جار السوء، وعشير السوء، وجليس السوء، ولا يكافئ السفه بالسفه، ولا يعجبه إكرام من يكرمه إلا على دين أو مروءة، ولا يفرح عند المحزون، وألا يكون عطاؤه خوراً، وبيانه هذراً، وعلمه جهلاً، وإذا بدهه أمران، فليخالف أقربهما إلى هواه، وليعلم أن خفض الصوت وسكون الغضب، ومشى القصد من دواعى المروءة، ولا يفرط فى شدة الحذر فإن بعضها عون على الإنسان فيما يحذر»

ومن كلام ابن المقفع فى آدب المحادثة:-

«على المرء ألا يبتدى حديثاً ثم يقطعه، وأن يخزن عقله وكلامه إلا عند إصابة الموضع، وأن يعرف العلماء منه أنه يحرص على السماع عنهم، ولا يخلط الجد بالهزل، ولا يكثر ادعاء العلم فى كل ما يعرض له، ولا يشارك محدثاً فى حديثه ولا يتعقبه، وإنما يحسن الاستماع له، ويمهله حتى يقضى حديثه، ولا يغالبه عليه، ولا يسابقه إليه، وإذا غلب على الكلام فلا يغلب على السكوت، ولا يخبر أخاه عن ذات نفسه بشىء إلا وهو محتجن عنه بعض ذلك، ولا يخبر بشىء إلا وهو مصدقه، ولا يصدق إلا ببرهان، وإذا لم تقع الأحاديث من السامعين موقعها، فليمسك عن نشرها، ولا يتطاول فى الفصاحة على قوم ليسوا فصحاء».

إذا نظرت إلى ما فى الكتابين الأدب الصغير والأدب الكبير، لا تجد فرقًا كبيرًا بينهما من جهتى الصياغة والصناعة، فقد جرى ابن المقفع فيهما على طريقة الحكماء فى التعليل وسوق الأدلة، فجاء أسلوبه فيها أمتن وأشد أسرًا من أسلوبه فى كتاب كليلة ودمنة «إلا أن جمله فى كتاب الأدب الكبير أكثر ارتباطًا منها فى الأدب الصغير؛ لأنه جمع مافيه فى بابين: باب السلطان، وباب الصديق، ولكنه أدخل فى كل باب ماليس منه بشىء من التكلف والتأويل البعيد.

ومن كلام ابن المقفع فى صحبة الملوك:-

«لا تكوننّ صحبتك للملوك إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم فى المكروه عندك، وموافقتهم فيما خالفك، وتقدير الأمور على ميلهم دون ميلك،... وأن تخفى ما أطلعوك عليه، وعلى الاجتهاد فى رضاهم.. والتزيين لرأيهم وقلة الاستقباح لما فعلوا، وحسن الستر لمساويهم، والتخفيف عنهم لمئونتك.

إنهم إن سخطوا عليك أهلكوك، وان رضوا عنك تكلفت من رضاهم ما لا تطيق»

أخذ ابن المقفع هذه المعانى عن سيرة الفرس فى تقديس ملوكهم، وفيها منزع سياسىّ لطيف يرضى عنه الخليفة المنصور، والعرب لا تعرف مثل هذه المعانى، لأنهم يجبهون ملوكهم، ويضربون بعيوبهم وجوههم.

ومن هذه المعانى قوله: **«لا تكن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك، وكن حافظًا إذا ولاك، أمينًا إذا ائتمنك، راضيًا إذا أسخطك، ومع هذا فالحذر من صحبته كل الحذر(١)».**

ومنها قوله: **«ينبغى للملك ألا يغضب؛ لأن القدرة من وراء حاجته، ولا أن يكذب؛ لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على ما يريد، ولا أن يبخل؛ لأن البخل مذموم، ولا أن يكون حقوداً؛ لأن خطره يجل عن المجازاة».**

وقوله فى التوقيت لكل شىء، ووضع كل شىء فى موضعه:-

«اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شىء، ففرغه للمهم، وأن مالك لا يغنى الناس كلهم، فاختصّ به ذوى الحقوق، وأن كرامتك لا تطيق العامة فتوخ أهل الفضائل، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن رأيت فيهما، وأنه ليس لك إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه من الدّعة فأحسن قسمتها بين دعتك وعملك».

ومن مبالغته فى الحرص على الإخوان قوله:-

أعلم أن إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا: زينة فى الرخاء، وعدة فى الشدة، ومعونة فى المعاش والمعاد، فلا تفرطن فى اكتسابهم وابتغاء الوصلات والأسباب إليهم».

---

(١) وقد ذكر هذا المعنى فى «كليلة ودمنة» حيث قال: «إن صاحب السلطان كراكب البحر إن أمن من الغرق لم يأمن من المخاوف.

ومن كلام ابن المقفع تلك القطعة التى يغلب عليها القياس المنطقى، والتصورات الدقيقة التى امتاز بها هذا الكاتب العبقرى:-

قال ابن المقفع: «**ليكن ماتصرف به الأذى والعذاب عن نفسك، إلا تكون حسوداً، فإن الحسد خلق لئيم، ومن لؤمه أنه يوكل بالأدنى من الأقارب والأكفاء والخلفاء.**

فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير منك، وأن غنمًا لك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك فى العلم فتقتبس من علمه، وأفضل منك فى المال، فتفيد من ماله، وأفضل منك فى القوة، فيدفع عنك بقوته، وأفضل منك فى الجاه، فتصيب حاجتك بجاهه، وأفضل منك فى الدين، فتزداد صلاحاً بصلاحه».

هذه القطعة وأمثالها من كلام ابن المقفع من السهولة درجة لا تحتاج فيها إلى استعمال المراجع اللغوية مع جزالة ألفاظها ورصانتها، وإحكام وضعها فى مواضعها اللائقة بها من الكلام بحيث يصعب على البليغ وضع كلمة بدل كلمة منها، وهذا هو السهل الممتنع، الذى إذا سمعه أحد ظن أنه يحسن مثله، ولكنه يمتنع عليه، وابن المقفع مع هذا شديد العناية بالمعانى، لا يتكلف السجع، وقد يزاوج بين الكلمات، ولا ينزع إلى المبالغة واللغوّ، مع ترتيب الأفكار واتّساقها، والجمع بين تفكر الحكيم، وذوق الأديب، وكثيرًا ما يردّد الكلمة؛ حيث يرى الأمر جديرًا بتنبيه السامع كقوله فى الأدب الكبير: «**احترس من سورة الغضب، وسورة الحمية، وسورة الحقد، وسورة الجهل و..**» وقوله: «**تحرز من سكر السلطة، وسكر العلم، وسكر المنزلة، وسكر الشباب**».

ومن كلام ابن المقفع فى كتاب «كليلة ودمنة» قال بيدبا: «**إنى وجدت الأمور التى اختص بها الإنسان من سائر الحيوان أربعة أشياء وهى جماع مافى العالم وهى: «الحكمة، والعفة، والعقل، والعدل» فالعلم والأدب والروية داخلة فى باب الحكمة، والحلم والصبر والوفاء داخلة فى باب العقل، والحياء والكرم، والصيانة**

والأنفة داخلة فى باب العفة، والصدق والإحسان، والمراقبة، وحسن الخلق داخلة فى باب العدل»

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله ... ولكنه قد يهلك المال نائله

ولعمر الحق إن رأيه هذا يتفق مع رأى قدامة بن جعفر[1] فى كتابة «نقد الشعر» حيث يقول: «لما كانت فضائل الناس من حيث إنهم ناس إنما هى «العقل، والشجاعة، والعدل، والعفة» كان المادح بهذه الخصال مصيبًا، والمادح بغيرها مخطئًا» وذلك ما قال زهير بن أبى سلمى يمدح «حصينًا».

فمن مثل «حصن» فى الحروب ومثله ... لإنكار صنيم أو الخصم يجادله؟

فوصفه فى هذا البيت بالعفة لقلة إمعانه فى اللّذات، وأنه لا ينفذماله فيها، وبالسخاء، لإهلاكه ماله فى النوال، وانحرافه إلى ذلك عن الذات وذلك هو العقل ثم قال:

فأتى فى هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل، فاستوعب زهير فى هذا المدح الخصال الأربع، التى هى فضائل الإنسان على الحقيقة».

ثم قال ابن المقفع أيضًا: «**إن كان للملوك فضل فى مملكتها، فإن للحكماء فضلا فى حكمتها أعظم؛ لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم، وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال» وقال: «إن الملوك لها سكرة كسكرة الشراب، فالملوك لا تفيق من السكرة إلا بمواعظ العلماء، وآداب الحكماء»**.

وقال فى كتاب «كليلة ودمنة» «**ما الإخوان ولا الأعوان، ولا الأصدقاء إلا بالمال، ووجدت من لا مال له إذا أراد أمراً قعد به العدم عما يريده، كالماء الذى يبقى فى الأودية من مطر الشتاء، لا يمر إلى نهر، ولا يجرى إلى مكان، فتشربه أرضه، ووجدت من لا إخوان له، لا أهل له، ومن لا ولد له، لا ذكر له، ومن لا مال له، لا عقل له ولا دنيا ولا آخرة»**.

---

(١) هو قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادى والناقد المعروف وصاحب كتابى «نقد النثر» و«نقد الشعر» توفى سنة ٣١٠هـ.

ثم يقول: «يبقى الصالح من الرجال صالحا حتى يصاحب فاسداً، فإذا صاحبه فسد مثل مياه الأنهار تكون عذبة حتى تخالط ماء البحر، فإذا خالطته ملحت».

ويقول أيضًا: «ووجدت الفقر رأس كل بلاء، وجالبًا إلى صاحبه كل مقت، ومعدن النميمة، ووجدت الرجل اذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنًا، وأساء به الظن من كان يظن به حسنًا، فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعًا، وليس من خلة هى للغنى مدح إلا وهى للفقير ذم، فإن كان شجاعًا قيل أهوج، وإن كان جواداً سمى مبذرًا، وإن كان حليماً سمى ضعيفاً، وإن كان وقوراً سمى بليداً، فالموت أهون من الحاجة، التى تحوج صاحبها إلى المسألة، ولا سيما مسألة الأشحاء واللئام».

الإطار العام لهذه الكتب الثلاثة

هذه الكتب الثلاثة يجمعها إطار عام من حيث الموضوع والغاية للتشابه العظيم بينها: فإذا أمعنا النظر فى كتابى الأدب الصغير والأدب الكبير لا نجد فرقًا بينهما من جهة الهدف، ومن ناحية الأسلوب فقد جرى ابن المقفع فيهما على طريقة الحكماء فى التعليل وسوق الأدلة فجاءت صياغتها أشد أسرًا وأمتن أسلوب من كتابه الثالث «كليلة ودمنة» بسبب القصص الكثيرة التى أجراها على ألسنة الحيوان والطير إلا أنّ عباراته فيها أكثر ارتباطًا منها فى الأدب الصغير.

والموضوعان المهمان اللّذان تناولهما الكاتب فى هذه الكتب الثلاثة لا يخرجان عن السلطان وعن الصديق، ولكنّه أدخل فى كل باب ما ليس منه أو ما تكلف إدخاله فيه مع التأويل البعيد.

أما باب السلطان فيتمثل فيه أثر الثقافة الفارسية، وأما الثقافة العربيّة الإسلامية فتتمثل فى باب السلطان والصديق، وفيما سرده من الأخلاق المحمودة عند المسلمين، وفيما يتعلق بأهل الدين والثواب والعقاب.

وفى الحق أن بين كتابى الأدب الصغير والأدب الكبير تشابهًا فى الأسلوب وطلاوة فى التأليف، ونبالة فى المقصد، واشتراكًا فى بعض الفصول، وقد عرضت فيما سبق أمثلة من هذين الكتابين يتضح منها التشابه فى الغاية والأسلوب، وأزيد عليها ما يأتى:-

قال ابن المقفع فى الأدب الصغير: «**وعلى العاقل إذا اشتبه عليه أمران، فلم يدر فى أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره**». وهذا المعنى ذكره المؤلف

فى كتاب الأدب الكبير قال: «**إذا بدهك أمران لا تدرى أيهما أصوب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فحاذره**».

وهناك مثال آخر:

قال ابن المقفع فى الأدب الصغير: «**إن للسلطان المقسط**[1] **حقًا لا يصلح لخاصة ولا عامة أمر إلا بإرادته، فذو اللب حقيق أن يبذل لهم الطاعة، ويكتم سرهم، ويزين سيرتهم، ويكون من أمره المواتاة لهم، والإيثار لأهوائهم ورأيهم على هواه، ويقدر على موافقتهم، وإن كان ذلك له مخالفًا، ولا تحمله مواتاة أحد على الاستخفاف بشىء من أمورهم والانتقاص لشىء من حقهم، ولا يتثاقل عن طاعتهم، ولا يدخل عليهم المئونة ولا يستثقل ما حملوه، ولا يغتر بهم إذا رضوا عنه، ولا يتغير لهم إذا سخطوا عليه**» **وقال فى كتاب الأدب الكبير**: «**لا تكونن صحبتك للملوك إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم فى المكروه عندك، وموافقتهم فيما خالفك، وتقدير الأمور على ميلهم دون ميلك... وأن تخفى ما أطلعوك عليه، وعلى الاجتهاد فى رضاهم... والتزين لرأيهم، وقلة الاستقباح لما فعلوا، وحسن الستر لمساويهم، والتخفيف عنهم لمئونتك.**

إنهم إن سخطوا عليك أهلكوك، وإن رضوا عنك تكلفت من رضاهم ما لا تطيق»[2].

أما كتاب «كليلة ودمنة» فقد استمده صاحبه من بعض العناصر الهندوسية والفارسية، والعناصر الإسلامية، كما استمد كتابه الأدب الصغير من كتاب الأدب الكبير، ومن كتاب «كليلة ودمنة» ونقل إليه بعض الفصول بتصرف قليل فى اللفظ، من ذلك قوله باب الأسد والثور: «فإن الملك لا يستطاع ضبطه إلا مع ذوى الرأى وهم الوزراء والأعوان، ولا ينتفع بالوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيحة، ولا مودة ولا نصيحة إلا لذوى الرأى والعفاف، وأعمال السلطان

---

(١) المقسط العادل ومنه قوله تعالى: «إن الله يحب المقسطين»، وأما القاسط فهو الظالم ومنه قوله تعالى: «وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا».

(٢) يلاحظ فى هذا النص وفى النص الذى قبله أن الكاتب متأثر بسيرة الفرس فى تقديس ملوكهم لأن العرب لا تعرف ذلك حيث يجبهون ملوكهم ويضربون بعيوبهم وجوههم.

كثيرة، والذين يحتاج إليهم من العمال والأعوان كثيرون، ومن يجمع منهم ما ذكرت من النصيحة والعفاف قليل فيجيب عليه أن يخبر وزراءه وذوى رأيه، ويرى ما عند كل واحد منهم من الرأى والتدبير، وما ينطوى عليه، فإذا استقر ذلك عنده جعل لكل واحد منهم ما يصلح أن يفكر فيه ويدبره، وألا يوجه إلى الأعمال إلا من يثق بدينه، وأمانته وعفته، ثم عليه بعد ذلك إنفاذ من يثق به للكشف عن أعمالهم، وتفقد أمورهم بالسر الخفى، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن، ولا إساءة مسىء فإن لم يفعل ذلك تهاون المحسن، واجترأ المسىء، وفى عرض ذلك تهلك الرعية، ويفسد الملك».

وقال فى كتاب الأدب الصغير: «**لا يستطاع السلطان إلا بالوزراء، والأعوان، ولا تنفع الوزراء إلا بالمودة والنصيحة، ولا المودة إلا مع الرأى والعفاف، وأعمال السلطان كثيرة، وقلما تستجمع الخصال المحمودة عند أحد، وإنما الوجه فى ذلك أن يكون صاحب السلطان عالمًا بأمور من يريد الاستعانة به، وما عند كل رجل من الرأى والغناء، ومافيه من العيوب، فإذا استقر ذلك عنده وجه لكل عمل من قد عرف أن عنده من الرأى، والنجدة، والأمانة ما يحتاج إليه فيه.**

ثم على الملوك بعد ذلك تعهد عمالهم، وتفقد أمورهم، حتى لا يخفى إحسان محسن، ولا إساءة مسىء، ثم عليهم بعد ذلك ألا يتركوا محسنًا بغير جزاء، ولا يقروا مسيئًا أو عاجزًا على الإساءة والعجز، فإنهم إن تركوا ذلك تهاون المحسن، واجترأ المسىء، وفسد الأمر، وضاع العمل ».

ومن ذلك قول ابن المقفع فى كتاب «كليلة ودمنة»: «ويقال فى الأمثال: «قارب عدوك بعض المقاربة، لتنال حاجتك، ولا تقاربه كل المقاربة، فيجترئ عليك، ويضعف جندك، وتذل نفسك، ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة فى الشمس، إذا أملتها قليلاً زاد ظلها، وإذا جاوزت بها الحد فى إمالتها نقص الظل».

وهذه العبارة أوردها ابن المقفع بتصرف قليل فى كتاب الأدب الصغير ثم قال فى كتاب «كليلة ودمنة»: «**فإنه لا شىء من سرور الدنيا يعدل صحبة الإخوان، ولا غم فيها يعدل البعد عنهم**».

وهذه العبارة أوردها الكاتب فى الأدب الصغير.

أما المشابهة بين كتاب «كليلة ودمنة» وبين كتاب الأدب الكبير فى بعض الفصول فقليلة خفيّة منها قوله فى باب عرض الكتاب: «**وينبغى لمن طلب أمراً أن يكون له فيه غاية ونهاية يعتمد عليها، ويقف عندها، ولا يتمادى فى الطلب، فإنه يقال: من سار إلى غير غاية يوشك أن تنقطع به مطيته**».

وقال فى الأدب الكبير: «**اجعل لنفسك فى كل شىء غاية ترجو القوة والتمام عليها، واعلم أنك إن جاوزت الغاية فى العبادة صرت إلى التقصير**» وهكذا نرى أن هذه الكتب الثلاثة جمعها فى إطار عام واحد؛ لأنها استقت من معين واحد، وجرت إلى غاية واحدة، وإن اختلفت أسماؤها غير أن كتاب «كليلة ودمنة» زاد عليها كثيراً من القصص ذات الأهداف الخاصة، التى أجراها على ألسنة الحيوان والطير كما تقدم الكلام عليها.

رأى الأدباء والعلماء فى ابن المقفع

نال عبدالله ابن المقفع إجماع النقاد من الأدباء والعلماء على بلاغته وتقدمه فى صناعة الإنشاء، وإنك لترى الثناء عليه فى كل كتاب تعرض له سواء فى ذلك المتقدمون والمتأخرون.

ولعل ذلك راجع إلى عظم شخصيته، وقوة عارضته، وحضور بديهته وفصاحة قلمه ولسانه، وسعة علمه، واتزان رأيه، وذكاء عقله، وكمال خلقه، فاكتملت له بذلك كلّه عناصر هذه الشخصية الممتازة.

فابن النديم يقول فيه: «**كان فى نهاية الفصاحة والبلاغة، كاتبًا، وشاعرًا مضطلعًا باللغتين العربية والفارسية، فصيحًا بهما**».

وحسبه فخرًا أن الخليفة أبا جعفر المنصور وهو من هو يقول عنه: «إنه أكتب خلق الله».

وقال الجاحظ فى كتابه «البيان والتبيين» لم يفسر البلاغة أحد تفسير ابن المقفع لها، فقد سئل ما البلاغة؟ فقال: «**البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة: فمنها ما يكون فى السكوت، ومنها ما يكون فى الاستماع ومنها مايكون فى الإشارة، ومنها ما يكاد يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا، ومنها مايكون ابتداء، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون فى الحديث، ومنها ما يكون فى الاحتجاج، ومنها مايكون خطبًا ومنها مايكون رسائل فعامة هذه الأبواب الوحى فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة**».

وقد عده الجاحظ من المعلمين ثم من البلغاء المتأدبين المقدّمين فى بلاغة القلم واللسان.

ومن تتبع أخبار هذه الكاتب العبقرى يجد فيها ما يدل على عقل واسع، ويرى أحيانًا ما يدل على شيء من الغفلة، حتى أنه ليجد فى الأمر الواحد ما يشعر بتناقض حاله.

مثال ذلك ما تقدم من إغرائه بنى العباس، وتشدده فى كتاب الأمان وما يتعلق بذلك، وهذا يدل على استخفاف ببطش المنصور وأشياعه، ولا شك أن منشأه الغفلة عن قوة المنصور وشدة بأسه.

أما ما يدل على سعة عقله وبعد نظره فقوله عندما استشاره عبدالله بن على الخارج على المنصور فيما كان بينه وبين الخليفة المنصور: «لست أقود جيشًا، ولا أتقلد سيفًا، ولا أشير بسفك دم، وعثرة الحرب لا تقال، وغيرى أولى بالمشورة فى هذا المكان».

مثل هذا التباين يجعل الباحث المدقق فى شك مما يقال عن غفلة ابن المقفع ويرجح كفة عبقريته وذكائه.

ومما لا شك فيه أن ابن المقفع كان مؤدبًا ومعلمًا، فقد كلف بتعليم ولد إسماعيل بن على عمّ المنصور، فكان يجلس معه فى كل أسبوع يومًا، ولعل ذلك كان على الرغم منه؛ حيث قال: «أتريد أن أثبت فى ديوان النوكى[1]؟».

وهذا يدل على شدة كراهيته لهذه المهنة، ولعله كان مكرهًا عليها، نازلاً على حكم الضرورة فيها.

---

(١) النوكى: الحمقى.

نبوغ ابن المقفع فى الترجمة

كان ابن المقفع أسبق المترجمين من الفارسية إلى العربيّة لتمكنه من اللغتين، وتأثره بالثقافتين، وذلك فى فجر النهضة العباسية التى كان أساسها الاقتباس من حضارة الفرس والهند والروم فى سياسة الملك، ونظام المعيشة.

وكان أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى مولعًا بتقليد فارس فى سياستها وتدبير مملكتها.

وقد ذكر المؤرخون أن ابن المقفع ترجم أول كتاب تنطق أساليبه بالحكمة، والموعظة الحسنة، وهو كتاب «كليلة ودمنة» الذى بقى على الدهر، وانتفعت به أمم مختلفة، حتى أصبح أساسًا لتربية الشباب.

ثم ترجم بعد ذلك كتبًا كثيرة فى الحكمة والمنطق مثل كتب أرسطو الثلاثة فى المنطق، وكتاب إيساغوجى وغيره.

وهنا يجدر بنا أن نعرف شيئين أحدهما: مصدر ميل ابن المقفع إلى الترجمة فى هذا الفن خاصة، وفى غيره عامة، مع أنه فن قد لا يتلقى بالقبول من أصحاب السطوة والجاه وسياسة الدولة، والثانى مصدر بقاء هذا الكتاب «كليلة ودمنة» واندثار غيره مما ترجمه ابن المقفع فى المنطق والحكمة والتاريخ حتى اضطر العرب أنفسهم إلى إعادة نقلها أيام الرشيد والمأمون.

وأما الأمر الأول، فلا نعرف له مصدرًا إلا الحالة الاجتماعية التى كانت عليها الأمة الإسلامية فى ذلك العصر، من اشتعال الحروب واضطرام نيرانها، وظلم الخلفاء، وعسف الأمراء والولاة، واحتياج الناس إلى مايسترشدون به فى العلاقة

بينهم وبين رعاتهم، وافتقار الملوك والأمراء إلى ما يستعينون به على سياسة الرعية، وضبط أمورها، وخاصة بعد ما ترامت أطرافها، وضمت أجناسًا مختلفة، فكان هذا الكتاب من مقتضيات العصر الذى ترجم فيه، فلم يكن من الممكن استغناء الناس عنه، أو رغبتهم فى قراءته واستظهاره، لطرائف قصصه، وجريها على أسلوب غير مألوف من قبل عند العرب وغيرهم.

وأما الأمر الثانى، فمصدره ماذكره المؤرخون من أن ابن المقفع قد ترجم المنطق والفلسفة من اللغة الفارسية، وكانت قد نقلت إليها من اليونانية.

ترجم ابن المقفع كتاب «كليلة ودمنة» أيام اتصاله بخدمة أبى جعفر المنصور كما ترجم عدة رسائل وكتب فى السياسة والأدب والمنطق والفلسفة والتاريخ باد أكثرهم وبقى بعضها، ولا نعلم كتابًا مطولاً كاملاً بعبارة كتاب واحد من الكتب التى صبرت على نوب الزمان وأيدى العابثين أقدم من هذا الكتاب.

وقد ذهب النقاد من مؤرخى الأدب إلى أن ابن المقفع كان يميل إلى الإصلاح الاجتماعى، وأنه تعمق فى درس هذه الحياة الاجتماعية، ورأى أن الحرية السياسية غير متوافرة فى هذا العصر، فلم يستطع أن يواجه الخليفة المنصور ورجال حاشيته بالنقد الصريح، فرأى أن موقفه معه يشبه موقف «بيدبا» الفيلسوف مع «دبشليم» الملك الطاغية، فترجم هذا الكتاب وزاد فيه.

والرأى الراجح أن ابن المقفع لم يترجم هذا الكتاب إلا ليظهر قدرته على الترجمة وبراعته فى صناعة الإنشاء، ولم يجعله درسًا فى الإصلاح الاجتماعى، والظاهر أن ابن المقفع سلك طريقة الترجمة بالمعنى، وهى أسهل من الترجمة الحرفية، وأن نبوغ هذا الكاتب الفارسى فى اللغة العربيّة جعل لترجمته ميزة عظيمة عن ترجمة كثير من أدباء العصر الحاضر، الذين أجادوا الثقافتين الأجنبية والعربيّة، فكانت هذه الترجمة المثل الأعلى الذى يتحدى به كاتبنا غيره من سائر الكُتَّاب والمترجمين.

صدر ابن المقفع ترجمته لهذا الكتاب بفصل سماه عرض الكتاب وصفه فيه، وبين فضل العقل والعلم، وأوضحه بالأمثال والحكايات على أسلوب الكتاب الأصلى، وأفاض فى التحريض على مطالعته وتفهمه.

فلما أطلع عليه العرب أعجبوا به، وأخذوا يتدارسونه، ويتناقلونه وقد تعدلت هذه الترجمة بتوالى الأزمان بين تنقيح وتصويب وتذييل فبلغت واحداً وعشرين باباً بعضها هندى الأصل والبعض، الآخر فارسىّ والآخر عربى، أما مقدمة الكتاب فقد جاءت على لسان على بن الشاه الفارسىّ.

ظل هذا الكتاب أثمن الكنوز الخالدة التى تحرّص عليها الأمم والأفراد فى تنشئة أبنائهم، وتربيتهم تربية سليمة، فقد وجه صاحبه النثر الفنّى إلى الكتابة القصصية المحببة للناس بمثل هذه القوة القادرة المتمكنة من اللغة وآدابها.

وبعد، فهل كان ابن المقفع ينقل من الفارسية إلى العربية نقلاً حرفيًا، أو أنه كان يكتفى باستقاء الفكرة من مظانها الفارسية ثم يلبسها ديباجة من أسلوبه العربى، ويتصرّف فيها بالحذف والزيادة، وبالتبديل أحيانًا تصرف المتمكن من اللغتين، وهذا هو الأصح، فإنه كان يعالج الفكرة معالجة تتفق مع العقلية العربيّة وحاجاتها فى أسلوب عربى مبين، مع إبراز شخصية ابن المقفع فى كل ما يكتب وما يترجم، وهذا هو السر فى نبوغه فى الترجمة، وتفوقه على نظرائه تفوقًا ضمن لكتابه الخلود، ولأبى محمد عبدالله ابن المقفع البقاء.

بين رسالة الصحابة وكتاب كليلة ودمنة

من أهم الرسائل الخالدة التى كتبها ابن المقفع رسالة الصحابة، وهى رسالة تشتمل على كثير من الأمور المتعلقة بالدولة والرعية، ربما تتعلق بالإدارة، والسياسة، والشئون العسكرية، وانتقاء الخطط المتبعة فى الحكم والجباية والقضاء، وعدم اعتبار الكفاءة فى قيادة الجند وماشاكل ذلك وبدل كلامه فيها على أنه كتبها للمنصور؛ لأنه ذكر فيها أمير المؤمنين، وذكر فيها الوزراء والكتاب قبل خلافته، كما ذكر فيها أبا العباس السفاح. ثم مدح أمير المؤمنين بأن اللّه طهره من هؤلاء الخارجين عليه، وقلع من كان يشركه فى أمره وهو «أبو مسلم الخراسانى» ثم شرع فى بيان مايراه من وجوه الإصلاح، فرأى أن يذكّر أمير المؤمنين بأمور سبعة: جند خراسان، وأهل البصرة والكوفة والعراق، وأهل الشام، وأصحابه، وبنى علىّ والعباس، وأمر الأرض والخراج، وجزيرة العرب «فاختار بذلك ناحية خاصة تم تطبيقها عمليًا على إدارة مقاطعات المشرق على حين أن كتاب كليلة ودمنة» عالج الموضوع نفسه معالجة عامة تنطبق على كل زمان ومكان، وقد سبق أن فصلنا ذلك فى جميع أبواب الكتاب ومايمثله كل باب.

أما جند خراسان فقد مدحهم بأنه لم يدرك مثلهم فى الإسلام، وإن فيهم المنعة والطاعة العمياء والفضل والعفاف والذلّ للولاة.. وذلك كله ليس فى غيرهم من الجنود، وطلب إلى المنصور أن يوقت لهم وقتًا لأرزاقهم فى كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له، وأن يعلموا ذلك حتى ينقطع الاستبطاء والشكوى، وأن يتفقد أحوال الجند، ويستقصى أخبارهم، وباطن أمرهم، وأن يتعهدهم بالتعليم والتفقه، وألا يولىّ أحدًا منهم شيئًا من الخراج؛ لأن ذلك مفسدة للمقاتلة، وأن يراعى

الكفاءة فى تعيين القوّاد، فإنّ فى الجند من هو أفضل من بعض قادتهم، وغير ذلك من الأمور(١).

وأما أهل البصرة والكوفة والعراق فذكر أنهم بعد أهل خراسان أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعة الخليفة وعينيه، وأن أهل العراق من الفقه والعفاف والبراعة فى اللغة شيئًا، لا يشك فى أنهم اختصوا به من سواهم من أهل القبلة.

ثم تصدىّ إلى ذكر القضاء وما فيه من التناقض والفوضى، وقد سبق القول فى ذلك، ويرى ابن المقفع أن اختلاف الأحكام إما مأثور عن السلف غير مجمع عليه، وإما رأى أجراه أهله على القياس.

ثم انتقل الكاتب إلى تذكير أمير المؤمنين بأهل الشام؛ لأنهم أشد الناس مؤنة، وأخوفهم عداوة، فرأى ألا يؤاخذهم بالعداوة، وألا يفضل أحدًا منهم على أحد إلا على خاصة معلومة.

أما أصحاب الخليفة الذين هم بهاء فنائه، وزينة مجلسة، وألسنة رعيته، والأعوان على رأيه فمنهم من لا ينتهى إلى أدب ولا حسب وهو مشهور بالفجور، ومع ذلك يؤذن له على الخليفة قبل قرابته ومنهم كثير من أبناء المهاجرين والأنصار وأهل البيوتات، ويجرى عليهم من الرزق أضعاف ما يجرى على كثير من بنى هاشم وغيرهم وفى ذلك مظلمة عظيمة أدخلت على الأحساب، والمروءات محنة وضياعًا، وهذا مما يشين السلطان.

ومنهم من يؤهلهم شرفهم وآراؤهم وأعمالهم لمجلس الخليفة ومشورته، ومنهم من يجمعون النجدة والعفاف والحسب.

ومنهم الفقهاء الصالحون المصلحون، ومنهم من يتوسلون بالشفاعة وهؤلاء يكتفى لهم بالمعروف والبر.

ثم انتقل بعد ذلك إلى تذكير الخليفة المنصور بفتيان أهل بيته وبنى أبيه، وبنى علىّ وبنى العباس، مبينًا أن فيهم رجالاً قادرين على كبار الأعمال يؤدونها كما يؤدون أعمالاً أخرى...

---

(١) وضع ابن المقفع هذا الدستور ليكون قانونًا يعمل به القواد والجنود وتنفذه الدولة، من ذلك إبعاد الجنود عن الاشتغال بالخراج والشئون السياسية.

وأما الأرض والخراج، ومافيه من الفوضى والإرهاق فقد ذكر أن سيرة العمل إحدى اثنتين: إما رجل أخرق عنيف شديد المغالاة، وإما رجل صاحب مساحة يستخرج ممنّ زرع، ويترك من لم يزرع.

ثم ذكر ما أخذ به أمير المؤمنين من تخير العمال وتفقدهم، والاستعتاب لهم، والاستبدال بهم.

ثم ذكر جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وغيرها ومايراه من الإصلاح لها، وذلك باختيار الصالح من بنى العباس وغيرهم وذلك لأن أهل كل مصر وثغر فقراء إلى مؤدبين ومقومين من أهل الفقه والسنة والنصيحة يتفقدون أمور العامة ويصلحونها، حتى يرجع أهل الفساد إلى الإصلاح، وأهل الفرقة إلى الألفة.

ثم ختم ابن المقفع رسالته هذه بعبارة فيها صلاح الملك وانتظامه فذكر أن العامة لا تصلح إلا بالخاصة، والخاصة لا تصلح إلا بإمامها، وحاجاتها إليه أعظم من حاجة العامة إليها، فبالإمام يجمع الله أمرهم وكلمتهم، ويبين عند العامة منزلتهم، ثم رجا ألا يعمل بهذه النصائح أحدًا إلا رزقه الله المتابعة فيه، والقوة عليه، ودعا اللّه أن يعزم لأمير المؤمنين على المراشد، ويحصنه بالحفظ والثبات.

تلك خلاصة مافى رسالة الصحابة، وفى الحق أن هذه الأمور التى رآها ونواحى الإصلاح التى ارتآها جديرة بالتقدير والاعتبار، وهى تدل على درس عميق لخطط الحكومة، ونظمها الاجتماعية، واستقراء لأحوال الجند والعمال والبطانة، وفكر قوى ثاقب، وبصر نافذ فيما يضر الحكومة وينفعها والرسالة مفعمة بالشعور الإسلامى، ومشتملة على كثير من ألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، والمصطلحات الإسلامية فهى عربية بحتة فى ألفاظها ومعانيها وأغراضها، وتمثل ماكان يتمتع به الأدباء من حرية الكتابة والرأى، حتى استطاع ابن المقفع أن يجابه المنصور بمثل هذه الرسالة.

وهكذا تبين لنا هذه الرسالة أنها لم تعالج سوى ناحية خاصة من «كليلة ودمنة» ثم طبقتها عمليًا على إدارة هذه المقاطعات بالمشرق فى حين أن قصص «كليلة ودمنة» عالجت الموضوع نفسه معالجة عامة تنطبق على كل زمان ومكان.

ويلاحظ أيضًا أن ابن المقفع فى «رسالة الصحابة» لم يترك معنى يستفيد منه الخليفة فى دعم سلطانه إلا أشار إليه إشارة كافية شافية، سواء فى ذلك أمر الجنود والقواد، وشئون القضاء والقضاة والأمصار والبلاد ومابه يقوم صلاح الملك وانتظامه، فكانت تلك الرسالة بمثابة دستور عام تسير عليه الدولة.

أمثلة من اليتيمة

- ١ -

قال ابن المقفع فى كتاب «اليتيمة» أما سؤالكم عن الزمان، فإن الزمان الناس، والناس رجلان: والى ومولى عليه، والأزمنة أربعة على اختلاف حالات الناس، فخيار الأزمنة، ما اجتمع فيه صلاح الراعى والراعية، فكان الإمام مؤديًا إلى الرعية حقهم فى الرد عنهم، والغيظ على عدوهم، والجهاد من وراء بيضته[١]، والاختيار لحكامهم، وتولية صلحائهم، والتوسعة عليهم فى معايشهم، وإفاضة الأمن فيهم، والمتابعة فى الحق لهم، والعدل فى القسمة بينهم، والتقويم لأردهم، والأخذ لهم بحقوق اللّه عزوجل عليهم، وكانت الرعية مؤدية إلى الإمام حقه فى المودة والمناصحة والمخالطة، وترك المنازعة فى أمره، والصبر عند مكروه طاعته، والمعونة له على أنفسهم، والشدة على من أجّل بحقه، وخالف أمره، غير مؤثرين فى ذلك آباءهم، ولا أبناءهم، ولا لابسين[٢] عليه أحدًا، فإذا اجتمع ذلك فى الإمام والرعية، تم صلاح الزمان، وبنعمة اللّه تتم الصالحات[٣]، ثم الزمان الذى يليه: أن يصلح الإمام نفسه، ويفسد الناس، ولا قوة بالإمام مع خذلان الرعية، ومخالفتهم وزهدهم فى صلاح أنفسهم، على أن يبلغ ذات نفسه فى صلاحهم، وذلك أعظم ماتكون نعمة اللّه على الوالى، وحجة اللّه على الرعية، فبالحرى أن يؤخذوا بأعمالهم، وما أخلفهم أن تصيبهم فتنة أو عذاب أليم.

---

(١) بيضتهم أى حوزتهم أو جماعتهم.

(٢) ولا لابسين عليه أحدا أى ولا مستأثرين بأحد دونه.

(٣) يشعر كلامه هذا أنه يمدح الزمان الذى هو فيه والذى عده نعمة من الله.

والزمان الثالث: صلاح الناس، فساد الوالى، وهذا دون الذى قبله، فإن لولاة الناس يدًا فى الخير والشر، ومكانًا ليس لأحد، وقد عرفنا فيما يعتبر به أن ألف رجل كلهم مفسد وأميرهم مصلح، أقل فسادًا من ألف رجل كلهم مصلح وأميرهم مفسد، والوالى إلى أن يصلح الله به الرعية، أقرب من الرعية إلى أن يصلح الله بهم الوالى، وذلك لأنهم لا يستطيعون معاتبته وتقويمه، مع استطالته بالسلطان والحميّة(١) التى تعلوه.

وشر الزمان: ما اجتمع فيه فساد الوالى والرعية، وتلك كارثة لم يتقادم عهد كونها، ولم تعف عنكم آثارها، وكل هذه الطباق من الشدة والرخاء، فيما يبتلى الله عز وجل به عباده، بجزاء معدّ، وكلمة سابقة، قال الله عز وجل «**ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون**».

- ٢ -

وقد ختم ابن المقفع كتابه «اليتيمة» بهذا الوصف الرائع، وبهذا الأسلوب البليغ الذى ساقه فى صفات صديقه، وتعد هذه القطعة آية فى الإبداع، قال: «إنى مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عينى، وكان رأس ماعظمه عندى، صغر الدنيا فى عينه، وكان خارجًا من سلطان بطنه، فلا يشتهى ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجًا عن سلطان فرجه، فلا تدعوه إليه مئونة، ولا يستخف له رأيًا ولا بدنا، وكان لا يأشر عند نعمة، ولا يستكين عند مصيبة، وكان خارجًا من سلطان الجهالة، فلا يقدم إلا على ثقة أو منفعة، وكان أكثر دهره صامتًا، فإذا قال بذّ(٢) القائلين، وكان يرى متضعفًا(٣) مستضعفًا، فإذا جد الجد فهو الليث عاديًا، وكان لا يدخل فى دعوى، ولا يشرك فى مراء، ولا يدلى بحجة، حتى يجد قاضيًا فهمًا، وشهودًا عدولاً، وكان لا يلوم أحدًا على ماقد يكون العذر فى مثله، حتى يعلم ما اعتذاره، وكان لا يشكو وجعًا إلا إلى من يرجو عنده البرء، ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة، وكان لا يتبرم ولا يتسخط، ولا يتشهى، ولا يتشكى، ولا ينتقم من العدو، ولا يغفل عن الولى، ولا يخص نفسه دون إخوانه

(١) الأشر البطر.

(٢) بذ القائلين = غلبهم وقهرهم.

(٣) ضعّفة = عده ضعيفًا كاستضعفه وفى الحديث «كل ضعيف متضعف».

بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته، فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت، ولن تطيق، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع، وبالله التوفيق».

- ٣ -

ولابن المقفع فى النصيحة: «لا يؤمننك شر الجاهل قرابة ولاجوار، ولا إلْف فإن أخوف مايكون الإنسان لحريق النار أقرب مايكون منها، وكذلك الجاهل إن جاورك أنصبك[١] وإن ناسبك جنى عليك، وإن ألفك حمل عليك مالاتطيق، وإن عاشرك آذاك وأخافك، مع أنه عند الجوع سبع ضار، وعند الشبع ملك فظ، وعند الموافقة فى الدين قائد إلى جهنم.

فأنت بالهرب منه أحق منك بالهرب من سم الأساود[٢]، والحريق المخوف، والدين الفادح [٣] والداء العياء»[٤].

- ٤ -

ومن كلام بن المقفع فى اليتيمة قوله: «**وقد أصبح الناس إلا قليلاً ممن عصم الله مدخولين منقوصين، فقائلهم باغ، وسامعهم عيّاب وسائلهم متعنّت، ومجيبهم متكلف، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل، وموعوظهم غير سليم من الهزء والاستخفاف...**».

ويلاحظ أن كلامه هذا يشبه كلام الخطباء، ثم إن ابن المقفع يعارض نفسه مادحًا هذا الزّمن، ولعل ذلك إنما كتبه فى اليتيمة خوفًا من بطش الخليفة المنصور فهو يقول «**فقولى فى هذا الزمان إنه إلا يكن خير الأزمان فليس علىَّ وإليكم ذنب... غير أننا بحمد الله قد أصبحنا نرجو لأنفسنا الصلاح بصلاح إمامنا، ولا نخاف عليه الفساد بفسادنا إلى أن قال: «وقلما نلقى من أهل العقل والمعاينة منكراً لنعمة الله بأمير المؤمنين. فمن كان سائلا عن الحق أمير المؤمنين فى معدنه، فإن أعظم حقوق الناس منزلة وأكرمها نسبة رسول الله صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة وخاتم النبيين بعثه الله بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، ثم هو باعثه يوم القيامة مقاماً محموداً**».

---

(١) أنصبك = أتعبك وأعياك (٢) الأساود = الحيات العظيمة السوداء
(٣) الفادح = الثقيل الذى لاتقدر على سداده (٤) العياء = الداء الذى لا يبرأ منه.

رأى ابن المقفع فى المرأة

- ١ -

لابن المقفع رأى متطرف فى المرأة، وما يجب أن تعامل به، ولعله متأثر بالبيئة الاجتماعية فى عصره من ذلك قوله: «**إياك ومشاورة النساء، فإن رأيهن إلى أفْن**[١]**، وعزمهن إلى وهن، واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن، فإن شدة الحجاب خير لك من الارتياب، وليس خروجهن بأشد من دخول من لا تثق به عليهن، فإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل. ولا تملكن امرأة من الأمر ماجاوز نفسها، فإن ذلك أنعم لحالها، وأرخى لبالها وأدوم لجمالها، وإنما المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة**[٢]**، فلا تعد بكرامتها نفسها، ولا تعطها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تطل الخلوة مع النساء، فيمللنك وتملّهن، واستبق من نفسك بقية، فإن إمساكك عنهن وهن يردنك باقتدار، خير من أن يهجمن عليك وهن على انكسار، وإياك والتغاير فى غير موضع غيرة، فإن ذلك يدعو الصحيحة منهن إلى السقم**».

- ٢ -

وقال: «**اعلم أن من أوقع الأمور فى الدين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأضرها بالعقل، وأسرعها فى ذهاب الجلالة والوقار، الغرام بالنساء، ومن البلاء على المغرم بهن أنه لاينفك بأْجم**[٣] **ما عنده، وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده**

---

(١) الأفن = الضعف.

(٢) القهرمانة = الوكيلة وهى كلمة فارسية معربة - ما أجمل هذه العبارة أنها من أجمل الحكم.

(٣) أجم الطعام وغيره بأجمه كرهه ومله.

منهن، وإنما النساء أشباه، ومايرى فى العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخدعة، بل مايرغب عنه الراغب مما عنده، أفضل مما تتوق إليه نفسه، وإنما المترغب عما فى رحله منهن إلى ما فى رحال الناس، كالمترغب عن طعام بيته إلى مافى بيوت الناس، بل النساء بالنساء، أشبه من الطعام بالطعام، وما فى رحال الناس من الأطعمة، أشد تفاضلا وتفاوتا مما فى رحالهم من النساء»

وهكذا نرى ابن المقفع قليل الثقة بالمرأة، كثير الظنة بها، فهو لا يراها أهلا للرأى، ولامستودعًا للسر، ويرى ائتمانها ضربًا من الحمق، وأن الغرام بها مفسدة للمرء أى مفسدة سواء فى ذلك الملك والسوقة، وأنه أضر شىء بالعقل والدين، وأنه لا يقدر على كيدها إلى غير ذلك من الآراء المتطرفة.

ولعل آراءه هذه فى المرأة قبل أن يتزوج، أما رأيه فيها بعد الزواج، فيختلف عن آرائه السابقة؛ لأنه يرى أن الزوجة الصالحة لا يعدلها شىء، فخير النساء الموافقة لبعلها.

والمرأة المثالية هى العفيفة الكريمة الحسب والنسب، العاقلة الجميلة، الموافقة لبعلها المحبة له.

على أن ابن المقفع فى موطن آخر يقول «**إن من الحمق التماس مودة النساء بالغلظة**» فهو صريح فى أن مودتها قد تلتمس، ويجب أن تلتمس باللطف واللّين، ومن كانت سجيتها على ماوصف من قبل، فمن الواجب ألا تلتمس مودتها.

وهذا يدل على أن ابن المقفع ليس له نظرة خاصة، ولا رأى ثابت فى المرأة، وإنما جمع هذه الجمل المتناقضة، وأفرغها فى قالب من الحكمة من غير أن ينظر فى تناقضها، أو إلى مطابقتها للحقيقة وعدم مطابقتها لها.

كلمة عامة

قدمت للقارئ الكريم فى إيجاز حياة رجل من سراة الفرس، بلغ من الشهرة والخلود، والعبقرية، والذكاء مبلغًا كبيرًا.

ولعلى فى هذا القدر المتواضع من الدراسة لحياة عبدالله بن المقفع أول مترجم من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، لتمكنه من اللغتين وآدابهما، ومواضع السر فى بلاغتهما، ولتأثره بالثقافتين العربية الإسلامية، والفارسية الكسروية، وبحضارة كلّ منهما - قد بلغت بعض ماينبغى لهذا الكاتب الفذّ، الذى استطاع أن يكون صاحب تراث عربى خالد، بما أنشأ من رسائل ديوانية، وأخرى إخوانية، وبما ترجم من كتب خالدة فى الأدب، والطب، والفلسفة، والحكمة والمنطق وسير الملوك، وتدبير المماليك.

وحسبه فخرًا أنه صاحب كتاب «كليلة ودمنة» الذى طبقت شهرته الآفاق، وبقى على الرغم من حوادث الأيام وصروفها، وكان فتحًا جديدًا فى الأدب الرمزىّ الخالد فى الأدبين العربى والغربى.

وإذا كان لابد من كلمة أنهى بها هذا البحث المشوق، وتلك الدراسة العميقة عن حياة أمير من أمراء النثر الفنى، الذى كان زينة الدولة العربيّة الإسلامية، وهو الرجل الفارسىّ الأصل، وكم لكثير من الفرس من أياد بيض على اللغة والأدب والتاريخ والتشريع - فهى أننى لم أتتبع حياته الأولى تتبع استقصاء لغموضها، وعدم معرفة شىء كثير عنها.

وقد استنبطت معالم هذه الحياة الخاصة، مما كتب ابن المقفع وألّف وترجم، ومن بعض المراجع الموثوق بها، كما استنبطت ما امتاز به أسلوبه من سلامة

وسهولة، ونصاعة ووضوح، فهو يتخير الألفاظ، ويصيب المعنى، من غير تكلف أو تصنع، جامعًا بين تفكير الحكيم، وذوق الأديب، فنرى أسلوبه جيد المطلع، لين المقطع، مستوى التقاسيم،قد تعادلت أطرافه وتشابهت بهواديه، ومآخره بمباديه، وحسبه أنه أول واضع للفن القصصي الرفيع فى كتابه «كليلة ودمنة».

وقد أكثرت من مختارات أدبه ورسائله، لتكون أمام القارئ، يعاود قراءتها، كلما اتسع لذلك وقته، أو يرجع إلى أصولها، ويتدبر ما فيها من المعانى والأفكار، ليتخذ منها عونًا على تفهم الحياة والمجتمع، فالناس هم الناس فى كل زمان ومكان، والحياة بجزرها ومدنها، هى الحياة وإن تغيرت مظاهرها.

وقد بين ابن المقفع ذلك المعنى فى عرض كتاب «كليلة ودمنة» حيث قال: «**ينبغى لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التى وضعت له، وإلى أى غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم والطير، وأضافه إلى غير مفصح ناطق، وغير ذلك من الأوضاع التى جعلها أمثالا، فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعانى، ولا أى ثمرة يجتنى منها، ولا أى نتيجة تحصل له من مقدمات ماتضمنه هذا الكتاب**».

وغنى عن البيان أن طالب البلاغة يجد فى كلام ابن المقفع مثالاً صالحًا يحتذى به فى الإفصاح عن ذات نفسه، ويرى كيف ينتقى ألفاظه، ليصوغ بها تراكيبه، ويأتى بهذه المعانى، وهى وإن لم تكن جديدة بما فيها فهى جديدة بوضعها فى أساليبها المصفاة.

وإن ابن المقفع فى هذا صاحب مدرسة أدبية ممتازة، كمدرسة عبد الحميد الكاتب ومدرسة الجاحظ، إلا أن مدرسة عبد الله بن المقفع ذات خصائص متميزة، وهذه الخصائص مستمدة من حضارة الفرس، وعلوم اليونان التى ترجمت إلى الفارسية، ومن الحضارة والثقافة الإسلاميتين، اللتين ظهرت آثارهما فى تفكيره، وصفاء تعبيره.

هذا إلى أن ابن المقفع يمتاز بجمال النفس، وجمال الخلق، كما يمتاز بأسلوبه السهل الممتنع، الذى يظن الجاهل أنه يستطيع أن يأتى بمثله، ولكنه يعجز عن إتيانه.

وإننا لنرجو أن نعثر على سائر كتبه، وآثاره الأدبية والحكمية باللغة العربيّة من مؤلفات ومترجمات، إذ فى ذلك نصر أى نصر للتراث العربى الخالد، وثروة طائلة تضاف إلى ثرواته القيمة.

وليس بخاف عن أذهاننا، أن كثيرًا من هذا التراث الخالد، قد ضاع فيما ضاع من كتب قيمة، وأن بعضه قد وزع فى المكتبات العربيّة فى العالم العربى فى بغداد، وتونس، والدار البيضاء، وفى دمشق، وحلب، والقاهرة، كما أن كثيرًا من هذه الكتب محفوظة فى مكتباب لندن، وبرلين، وڤيينا، وروما، وإسبانيا، وموسكو، والقسطنطينية وغيرها من مكتبات أوروبا. وإننا لنأمل أن تتجه العناية إلى البحث والتنقيب فى هذه المكتبات لإحياء ما اندثر من تراث العرب بشتى الوسائل حتى ننتفع بهذا التراث كما انتفع به الأوروبيون فى نهضتهم، وليس هذا بعزيز على شعب بلغ مابلغ بجهاد أبنائه وأجداده، حتى كان مصدر الإشعاع والتقدم والحضارة والإنسانية، والله ولى التوفيق.

مختارات من كلام ابن المقفع

- ١ -

قال ابن المقفع فى بيان شدة الحاجة إلى التأدب:-

«ولسنا إلى مايمسك بأرماقنا[1] من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى مايثبت عقولنا من الأدب الذى به تفاوت العقول.

وليس غذاء الطعام بأسرع فى نبات الجسد من غذاء الأدب فى نبات العقل ،لسنا بالكد فى طلب المتاع الذى يلتمس به دفع الضر والعيلة[2] بأحق منا بالكد فى طلب العلم الذى يلتمس به صلاح الدين والدنيا».

- ٢ -

وقال فى ضرورة حاجة المعلم إلى تعليم نفسه أولا :-

«من نصب نفسه للناس إمامًا فى الدين، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه، وتقويمها فى السيرة والطعمة[3]، والرأى، واللفظ، والأخدان[4]،فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه، فإنه كما أن كلام الحكماء يؤنق[5] الأسماع، فكذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب.

ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم».

---

(١) أرماقنا أرواحنا = والرمق بقية الروح. (٢) العيلة = الفقر.
(٣) الطعمة = وجوه الكسب. (٤) الأخدان = الأصدقاء. (٥) يؤنق = يعجب ويفرح.

- ٣ -

ومن كلام ابن المقفع:-

«ينبغى للملك ألا يغضب، لأن القدرة من وراء حاجته، ولا أن يكذب؛ لأنه لايقدر أحد على استكراهه على مالايريد، ولا أن يبخل، لأن البخل مذموم، ولا أن يكون حقوداً، لأن خطره يجل عن المجازاة».

- ٤ -

ومما قاله فى بيان صورة العالم الحقيقى:-

«ومما يدل على علم العالم، معرفته بما يدرك من الأمور، وإمساكه عما يدرك، وتزيينه نفسه بالمكارم، وظهور علمه الناس من غير أن يظهر منه فخر أو عجب، ومعرفته بزمانه الذى هو فيه، وبصره بالناس، وأخذه بالقسط، وإرشاده المسترشد، وحسن مخالفته خلطاءه، وتسويته بين قلبه ولسانه، وتحريه العدل فى كل أمر، ورحب ذراعه فيما نابه، واحتجاجه بالحجج فيما عمل، وحسن تبصره».

- ٥ -

وقال ابن المقفع فى التوقيت لكل شىء، ووضع كل شىء موضعه: **«اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شىء، ففرغه للمهم، وأن مالك لايغنى الناس كلهم، فاختص به ذوى الحقوق، وأن كرامتك لاتطيق العامة، فتوخ بها أهل الفضائل، وأن ليلك ونهارك لايستوعبان حاجاتك، وإن دأبت فيهما، وأنه ليس لك إلى أدائها سبيل، مع حاجة جسدك إلى نصيبه من الدعة، فأحسن قسمتها بين دعتك وعملك».**

- ٦ -

وقال فى نصائحه للملوك:-

«السلطان لا يقرب الرجال على قرب آبائهم، ولا يباعدهم لبعدهم، ولكنه ينزلهم على قدر ماعند كل امرئ منهم فيما ينتفع به، وقد يكون الجرذ فى البيت جاراً مجاوراً، فيتقى إذا كان ضاراً مؤذياً، ولما كانت فى البازى منفعة وهو وحش اقتنى واتخذ».

- ٧ -

ومن كلامه:-

«ثلاثة إن أقدموا على ثلاث من غير ثلاث، فرأوا ماكرهوا، فلا يلومنّ إلا أنفسهم: من خاصم من غير حجة فخصم، أو صارع من غير قوة فصرع، أو حارب بغير عدة فهزم».

- ٨ -

قال بيدبا الفيلسوف:-

«كنت أسمع من الحكماء قبلى تقول: «إن الملوك لها سكر كسكرة الشراب، فالملوك لاتفيق من السكرة إلا بمواعظ العلماء، وآداب الحكماء فوجدت ما قالت الحكماء فرضًا واجبًا عليهم لملوكهم، ليوقظوهم من سنة[١] سكرتهم،كالطبيب الذى يجب عليه فى صناعته حفظ الأجساد على صحتها أو ردها إلى الصحة، فكرهت أن يموت أو أن أموت، وما يبقى على الأرض إلا من يقول: «إنه كان بيدبا» الفيلسوف فى زمان «دبشليم» الطاغى فلم يرده عما كان عليه.

فرأيت أن أجود بحياتى، فأكون قد أتيت فيما بينى وبين الحكماء بعدى عذرًا، **فحملتها على التغرير[٢] أو الظفر بما أريده، وكان من ذلك ما أنتم معاينوه.**

فإنه يقال فى الأمثال: **إنه لم يبلغ أحد مرتبة إلا بإحدى ثلاث: «إما بمشقة تناله فى نفسه، وإما بوضيعة فى ماله، أو وكس[٣] فى دينه، ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب».**

- ٩ -

قال بيدبا الفيلسوف:-

«أيها الملك، إن طبائع الخلق مختلفة، وليس مما خلقه الله فى الدنيا مما يمشى على أربع أو على رجلين أو يطير بجناحين شىء هو أفضل من الإنسان، ولكن من الناس البر والفاجر، وقد يكون فى بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمة، وأشد محاماة على حرمه، وأشكر للمعروف، وأقوم به.

---

(١) السنة = أول النوم وهو النعاس.

(٢) التغرير = المخاطرة وحمل النفس على الخطر والهلاك.

(٣) وكس = نقص.

وحينئذ يجب على ذوى العقول من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه، ولا يضيعوه عند من لا يحتمله، ولا يقوم بشكره، ولايصطنعوا أحداً إلا بعد الخبرة بطرائقه، والمعرفة بوفائه ومودته وشكره، ولا ينبغى أن يختصوا بذلك قريباً لقرابته، إذا كان غير محتمل للصنيعة، ولا أن يمنعوا معروفهم ورفدهم(١) للبعيد إذا كان يقيهم بنفسه ومايقدر عليه؛ لأنه يكون حينئذ عارفاً بحق ما اصطنع إليه، مؤدياً لشكر ما أنعم عليه، محموداً بالنصح معروفاً بالخير، مؤثراً لحميد الفعال والقول، وكذلك كل من عرف بالخصال المحمودة ووثق منه بها، كان للمعروف موضعاً، ولتقريبه واصطناعه أهلاً فإن الطبيب الرفيق العاقل، لايقدر على مداواة المريض إلا بعد النظر إليه، والجس لعروقه، ومعرفة طبيعته، وسبب علته، فإذا عرف ذلك كلّه حق معرفته أقدم على مداواته، فكذلك العاقل لاينبغى له أن يصطفى أحداً، ولا يستخلصه إلا بعد الخبرة».

وقد قيل: «لا ينبغى لذى العقل أن يحتقر صغيراً ولا كبيراً من الناس ولا من البهائم، ولكنه جدير بأن يبلوهم، ويكون مايصنع إليهم على قدر مايرى منهم».

- ١٠ -

ولابن المقفع فى الأدب الصغير: «من أشد عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه، فإن من خفى عليه عيبه، خفيت عليه محاسن غيره، فلن يقلع عن عيبه، الذى لا يعرفه، ولن ينال محاسن غيره»

- ١١ -

ولابن المقفع فى الأدب الكبير:-

«إذا تراكمت عليك الأعمال، فلا تلتمس الرّوح(٢) فى مدافعتها يوماً بيوم، والروغان منها، فإنه لاراحة لك إلا فى إصدارها(٣)، وإن الصبر عليها هو الذى يخففها عنك، والضجر منها هو الذى يراكمها عليك فتعهد من ذلك فى نفسك خصلة قد رأيتها تعترى بعض أصحاب الأعمال، وذلك أن الرجل يكون فى أمر من أموره، فيرد عليه شغل آخر، أو يأتيه شاغل من الناس يكره إيتاءه، فيكدر ذلك بنفسه تكديراً يفسد ماكان فيه، وما ورد عليه حتى لا يحكم(٤) واحداً منها.

(١) الرفد = العطاء.
(٢) الروح = الراحة حيث تهملها ولاتؤديها.
(٣) إصدارها = إنجازها.
(٤) لا يحكم واحداً منها = لايتقن ولا يجيد عملاء.

فإذا ورد عليك مثل ذلك، فليكن معك رأيك وعقلك اللذان بهما تختار الأمور، ثم اختر أولى الأمرين بشغلك، فاشغل به، حتى تفرغ منه، ولايعظمن عليك فوت مافات، ولا تأخير ما تأخر»

عرضت على القارئ أمثلة من هذه المختارات يتبين منها مقدار ماوصل إليه كاتبنا من المقدرة الفائقة على تصوير المعانى الدقيقة فى أسلوب مستساغ، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه إنما يكتب للأجيال الحاضرة والمستقبلة منذ ألف ومائتى سنة فى كثير من شئون الحياة ومافيها من حكمة، وأخلاق وسياسة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

المختار من قصص كليلة ودمنة

السمكات الثلاث

«زعموا أن غديرا كان فيه ثلاث سمكات: كيسة[1]، وأكيس منها، وعاجزة، وكان ذلك الغدير بنجوة [2]من الأرض، لا يكاد يقربه أحد، وبقربه نهر جار، فاتفق أن اجتاز بذلك النهر صيادان، فأبصرا الغدير، فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما، فيصيدا مافيه من السمك، فسمع السمكات قولهما، فأما أكيسهن لما سمعت قولهما ارتابت بهما، وتخوفت منهما، فلم تعرج على شىء حتى خرجت من المكان، الذى يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير.

وأما الكيسة، فإنها مكثت مكانها حتى جاء الصيادان، فلما رأتهما وعرفت مايريدان، ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء، فإذا بهما قد سدّا ذلك المكان، فحينئذ قالت: فرطت، وهذه عاقبة التفريط، فكيف الحيلة على هذه الحال؟ وقلما تنجح حيلة العجلة والإرهاق، غير أن العاقل لايقنط من منافع الرأى، ولا ييأس على حال، ولايدع الرأى والجهد.

ثم أنها تماوتت، فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة، وتارة على بطنها، فأخذها الصيادان فوضعاها على الأرض بين الغدير والنهر، فوثبت إلى النهر فنجت.

وأما العاجزة فلم تزل فى إقبال وإدبار حتى صيدت[3]».

---

(١) كيسه = عاقلة حزم. (٢) النجوة = ما ارتفع من الأرض.

(٣) لقد تبارى ثلاثة من كبار الأدباء فى هذا العصر على صياغة هذه القصة فى أقل من هذا، فلم يستطع واحد منهم ذلك مما يدّل على مقدرة ابن المقفع وتفوقه فى الكتابة.

الحمامة والثعلب ومالك الحزين

قال الملك الفيلسوف: اضرب لى مثلا فى شأن الرجل الذى يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه.

قال الفيلسوف: إن مثل ذلك الحمامة والثعلب ومالك الحزين قال الملك: وما مثلهن؟

قال الفيلسوف: «زعموا أن حمامة كانت تفرخ فى رأس نخلة طويلة ذاهبة فى السماء، فكانت الحمامة تشرع فى نقل العش إلى رأس تلك النخلة فلا يمكن أن تنقل ما تنقل من العش، وتجعله تحت البيض، إلا بعد شدة وتعب ومشقة لطول النخلة وسحقها[1].

فإذا فرغت من النقل باضت، ثم حضنت بيضها فإذا فقست، وأدرك[2] فراخها، جاءها ثعلب: قد تعاهد ذلك منها لوقت قد علمه بقدر ماينهض فراخها، فيقف بأصل النخلة، فيصيح بها، ويتوعدها أن يرقى إليها، فتلقى إليه فراخها.

فبينما هى ذات يوم قد أدرك لها فرخان إذ أقل مالك الحزين[3] فوقع على النخلة، فلما رأى الحمامة كئيبة حزينة شديدة الهم. قال لها مالك الحزين: «ياحمامة، مالى أراك كاسفة[4] اللّون، سيئة الحالة؟ فقالت له:- «يامالك الحزين! إن ثعلبًا وهبت به، كلما كان لى فرخان جاء يهددنى، ويصيح فى أصل النخلة، فأفرق[5] منه، فأطرح إليه فرخىّ.

قال لها مالك الحزين: «إذا أتاك ليفعل ماتقولين فقولى له: «لا ألقى إليك فرخىّ، فارْق إلىَّ، وعزر[6] بنفسك، فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخىّ طرت عنك، ونجوت بنفسى.

فلما علمها مالك الحزين هذه الحيلة طار، فوقع على شاطئ نهر فأقبل الثعلب فى الوقت الذى عرف، فوقف تحتها ثم صاح كما كان يفعل، فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين.

---

(١) ارتفاعها. (٢) كبر فراخها.

(٣) طائر طويل العنق والرجلين يلازم الماء وفيه حمق «أبو قردان»

(٤) متغيرة اللون من الخوف والحزن.

(٥) أخاف. (٦) عرضها الهلاك.

فقال الثعلب: «أخبرينى من علمك هذا؟

قالت: علّمنى مالك الحزين.

فتوجه الثعلب حتى أتى مالك الحزين على شاطئ النهر فوجده واقفًا فقال له الثعلب: يامالك الحزين، إذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك؟ قال: عن شمالى.

قال: فإذا أتتك عن شمالك،فأين تجعل رأسك؟

قال: أجعله عن يمينى أو خلفى.

قال: فإذا أتتك من كل مكان وكل ناحية، فأين تجعله؟

قال: أجعله تحت جناحى، قال: وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك؟ ما أراه يتهيأ[١] لك. قال: بلى!

قال: فأرنى كيف تصنع؟ فلعمرى يامعشر الطير لقد فضلكن الله علينا، إنكن تدرين فى ساعة واحدة مثل ماندرى فى سنة، وتبلغن مالانبلغ، وتدخلن رءوسكن تحت أجنحتكنّ من البرد والريح، فهنيئًا لكن، فأرنى كيف تصنع؟ فأدخل الطائر رأسه تحت جناحه، فوثب عليه الثعلب مكانه، فأخذه فهمزه[٢] همزة دقت عنقه.

ثم قال: «ياعدو نفسه أترى الرأى للحمامة، وتعلمها الحيلة لنفسها، وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يستمكن منك عدوك ثم أجهز[٣] عليه وأكله»

الحمامة المطوقة[٤]

قال «بيدبا» الفيلسوف: «زعموا أنه كان بأرض سكاوندجين مكان كثير الصيد، ينتابه الصيادون، وكان فى ذلك المكان شجرة كثيرة الأغصان ملتفة الورق فيها وكر غراب.

فبينما هو ذات يوم ساقط فى وكره إذ بصر بصياد قبيح المنظر سيئ الخلق على عاتقه شبكة، وفى يده عصا مقبلاً نحو الشجرة، فذعر منه الغراب، وقال:

(١) يمكنك ويتيسر لك. (٢) همزه ضربه بمخالبه. (٣) قتله.

(٤) لها ريش أبيض حول عنقها كالطوق يميزها من غيرها من أنواع الحمام.

«لقد ساق هذا الرجل إلى هذا المكان إما حينى[1]، وإما حين غيرى، فلأثبتن مكانى حتى أنظر ماذا يصنع؟ ثم إن الصياد نصب شبكته ونثر عليها الحب، وكمن قريبًا منها، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مرت به حمامة يقال لها المطوقة، وكانت سيدة الحمام، ومعها حمام كثير، فعميت هى وأصحابها عن الشرك، فوقعن على الحب يلتقطنه، فعلقن فى الشبكة كلّهن، وأقبل الصياد فرحًا مسرورًا فجعلت كل حمامة تضطرب فى حبائلها[2]، تلتمس الخلاص لنفسها.

قالت المطوقة: لاتخاذلن[3] فى المعالجة، ولا تكن نفس إحداكن أهم إليها من نفس صاحبتها، ولكن نتعاون جميعًا، فنقلع الشبكة، فينجو بعضنا ببعض، فقلعن الشبكة جميعهن بتعاونهن، وعلون فى الجو، ولم يقطع الصياد رجاءه منهن، وظن أنهن لايجاوزن إلا قريبًا ويقعن.

فقال الغراب: «لأتبعهن، وأنظر مايكون منهن.

فالتفتت المطوقة، فرأت الصياد يتبعهن، فقالت للحمام:«هذا الصياد مجدّ فى طلبكن، فإن نحن أخذنا فى الفضاء، لم يخف عليه أمرنا، ولم يزل يتبعنا، وإن نحن توجهنا إلى العمران خفى عليه أمرنا وانصرف.

وبمكان كذا جرذ[4] هو أخ لى، فلو انتهينا إليه قطع عنا هذا الشرك، ففعلن ذلك، وأيس الصياد منهن وانصرف، وتبعهن الغراب.

فلما انتهت الحمامة المطوقة إلى الجرذ، أمرت الحمام أن يسقطن فوقعن، وكان للجرذ مائة جحر للمخاوف، فنادته المطوقة باسمه فأجابها الجرذ من جحره: من أنت؟ قالت: أنا خليلتك المطوقة. فأقبل إليها الجرذ يسعي فقال لها: «ما أوقعك فى هذه الورطة؟ قالت له: «ألم تعلم أنه ليس من الخير والشر شىء إلا وهو مقدّر على من تصيبه المقادير، وهى التى أوقعتنى فى هذه الورطة، فقد لا يمتنع من القدر من هو أقوى منى وأعظم أمرًا، وقد تنكسف الشمس والقمر إذا قضى ذلك عليهما.

ثم إن الجرذ أخذ فى قرض العقد الذى فيه المطوقة.

---

(١) الحين بالفتح = الأجل والهلاك.
(٢) الحبائل جمع حبالة بالكسر وهى الشبكة.
(٣) لاتخاذلن وتضعفن فى النجاة من الشبكة.
(٤) الجرذ = الفأر.

فقالت له المطوقة: ابدأ بقطع عقد سائر الحمام، وبعد ذلك أقبل على عقدى، وأعادت ذلك عليه مرارًا، وهو لايلتفت إلى قولها، فلما أكثرت عليه القول وكررت، قال لها: «لقد كررت القول علىّ، كأنك ليس لك فى نفسك حاجة، ولا لك عليها شفقة ترعين لها حقها.»

قالت: «إنى أخاف إن أنت بدأت بقطع عقدى أن تملّ وتكسل عن قطع مابقى، وعرفت أنك أن بدأت بهن قبلى، وكنت أنا الأخيرة لم ترض وإن أدركك الفتور أن أبقى فى الشرك.

قال الجرذ: «هذا مما يزيد الرغبة والمودة فيك» ثم أن الجرذ أخذ فى قرض الشبكة حتى فرغ منها، فانطلقت المطوقة وحمامها معها. فلما رأى الغراب صُنع الجرذ، رغب فى مصادقته، فجاءه وناداه باسمه، فأخرج الجرذ رأسه، فقال له: «ماحاجتك؟»

قال: «إنى أريد مصادقتك»

قال الجرذ: «ليس بينى وبينك تواصل، وإنما العاقل ينبغى له أن يلتمس مايجد إليه سبيلاً، ويترك التماس ماليس إليه سبيل، فإنما أنت الآكل، وأنا طعام لك.

قال الغراب: «إن أكلى إياك - وإن كنت لى طعامًا - مما لا يغنى عنى شيئا، وإن مودتك أنس لى مما ذكرت، ولست بحقيق إذا جئت أطلب مودتك - أن تردنى خائبًا، فإنه قدظهر لى منك من حسن الخلق مارغبنى فيك، وإن لم تكن تلتمس إظهار ذلك، فإن العاقل لايخفى فضله، وإن هو أخفاه - كالمسك الذى يكتم ثم لا يمنعه ذلك من النشر(١) للطيب، والأرج(٢) الفائح.

قال الجرذ: «إن أشد العداوة عداوة الجوهر، وهى عداوتان: منها ما هو متكافئ كعداوة الفيل والأسد، ومنها ماقوته فى أحد الجانبين على الآخر، كعداوة مابينى وبين النسور(٣)، وبينى وبينك، فإن العداوة التى بيننا ليست تضرك، وإنما ضررها عائد علىّ، فإن الماء لو أطيل إسخانه لم يمنعه ذلك من إطفائه النار إذا صبّ عليها،وإنما مصاحب العدوّ ومصالحه كصاحب الحية يحملها فى كمه، والعاقل لا يستأنس إلى العدو الأريب(٤).

---

(١) النشر = الرائحة الطيبة. (٢) الأرج = نفحة ريح الطيب الذكى.
(٣) النسور = القط. (٤) الأريب = الذكى.

من باب الأسد والثور

زعموا أن أسدًا كان فى أجمة مجاورة لطريق من طرق الناس، وكان له أصحاب ثلاثة: ذئب، وغراب، وابن آوى[١]، وأن رعاة مروا بذلك الطريق، ومعهم جمال، فتخلف منها جمل، فدخل تلك الأجمة، حتى انتهى إلى الأسد فقال له الأسد: «من أين أقبلت؟» قال: من موضع كذا... قال: فما حاجتك؟ قال: مايأمرنى به الملك.. قال: «تقيم عندنا فى السعة، والأمن والخصب، فأقام الأسد والجمل معه زمنًا طويلاً، ثم إن الأسد مضى فى بعض الأيام لطلب الصيد، فلقى فيلاً عظيمًا فقاتله قتالاً شديدًا، وأفلت منه مثقلا[٢] مثخنًا بالجراح، يسيل منه الدم، وقد خدشه الفيل بأنيابه، فلما وصل إلى مكانه وقع لا يستطيع حراكًا، ولايقدر على طلب الصيد فلبث الذئب والغراب، وابن آوى أيامًا لايجدون طعامًا، لأنهم كانوا يأكلون من فضلات الأسد وطعامه، فأصابهم جوع شديد وهزال، وعرف الأسد ذلك منهم.

فقال: لقد جهدتم، واحتجتم الى ماتأكلون...

فقالوا: لا تهمنا أنفسنا، لكنا نرى الملك على ما نراه، فليتنا نجد ما يأكله، ويصلحه.

قال الأسد: ما أشك فى نصيحتكم، ولكن انتشروا لعلكم تصيبون صيدًا تأتونى به، فيصبنى، ويصيبكم منه رزق، فخرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد، فتنحوا ناحية، وتشاوروا فيما بينهم؛ وقالوا: ما لنا ولهذا الآكل العشب الذى ليس شأنه من شأننا، ولارأيه من رأينا. ألا نريد للأسد فيأكله، ويطعمنا من لحمه؟ قال ابن آوى: هذا مما لانستطيع ذكره للأسد؛ لأنه قد أمنَّ الجمل وجعل له من ذمته عهدًا.

قال الغراب: «أنا أكفيكم أمر الأسد. ثم انطلق فدخل على الأسد. فقال له الأسد: هل أصبت شيئًا؟ فقال الغراب: إنما يصيب من يسعي ويبصر، وأما نحن فلا سعى لنا ولا بصر، لما بنا من الجوع، ولكن قد وفقنا لرأى، واجتمعنا عليه إن وافقنا الملك فنحن له مجيبون.

---

(١) حيوان من فصيلة الكلب وفى حجم الثعلب.

(٢) مثقلا من كثرة ما أصابه من الجراح التى أضعفته.

قال الأسد: وماذاك؟

قال الغراب: «هذا الجمل آكل العشب، المتمرغ بيننا من غير منفعة لنا منه، ولا ردّ عائدة، ولاعمل يعقب مصاحة.

فلما سمع الأسد ذلك غضب وقال: ما أخطأ رأيك! وما أعجز مقالك! وأبعدك من الوفاء والرحمة! وماكنت حقيقًا أن تجترئ علىّ بهذه المقالة، وتستقبلنى بهذا الخطاب مع ماعلمت منه أنى قد أمنت الجمل، وجعلت له من ذمتى[1]، أولم يبلغك أنه لم يتصدق متصدق بصدقة هى أعظم أجرا ممن آمن نفسًا خائفة، وحقن دمًا مهدار، وقد أمنته، ولست بغادر به.

قال الغراب: إنى لأعرف مايقول الملك، ولكن النفس الواحدة يفتدى بها أهل البيت، وأهل البيت تفتدى بهم القبيلة، والقبيلة يفتدى بها أهل المصر، وأهل المصر، وأهل المصر[2] فداء الملك، وقد نزلت بالملك الحاجة، وأنا أجعل له من ذمته مخرجًا، على ألا يتكلف الملك ذلك ولا يليه بنفسه، ولا يأمر به أحدًا، ولكنا نحتال بحيلة لنا وله[3] فيها إصلاح وظفر.

فسكت الأسد عن جواب الغراب عن هذا الخطاب، فلما عرف الغراب إقرار الأسد أتى أصحابه، فقال لهم: قد كلمت الأسد فى أكله الجمل: على أن نجتمع نحن والجمل عند الأسد، فنذكر له ما أصابه، ونتوجع له اهتمامًا منا بأمره، وحرصًا على صلاحه، وبعرض كل واحد منا نفسه عليه تجملا ليأكله فيردّ الآخران عليه، يسفهان رأيه، ويبيّنان الضرر فى أكله، فإذا فعلنا ذلك سلمنا كلنا، ورضى الأسد عنا، ففعلوا ذلك وتقدموا إلى الأسد.

فقال الغراب: «قد احتجت أيها الملك إلى مايقويك، ونحن أحق أن نهب أنفسنا لك، فإنا بك نعيش، فإذا هلكت فليس لأحد منا بقاء بعدك، ولا لنا فى الحياة من خيرة فليأكلنى الملك، فقد طبت بذلك نفسًا.

فأجابه الذئب وابن آوى: أن اسكت، فلا خير للملك فى أكلك وليس فيك شبع.

---

(١) أى جعلت له عهدًا من ذمتى فحذف المفعول به للعلم به.

(٢) المصر المدينة العظيمة.

(٣) الضمير يعود على الملك لا على الجمل.

قال ابن آوى: لكن أنا أشبع الملك، فليأكلنى، فقد رضيت بذلك، وطبت عنه نفسًا.

فرد عليه الذئب والغراب بقولهما: إنك لمنتن قذر.

قال الذئب: «إنى لست كذلك، فليأكلنى الملك، فقد سمحت بذلك وطبت عنه نفسًا.

فاعترضه الغراب وابن آوى وقالا: «قد قالت الأطباء: «من أراد قتل نفسه، فليأكل لحم ذئب «فظن الجمل أنه إذا عرض نفسه على الأكل التمسوا له عذرًا، كما التمس بعضهم لبعض الأعذار، فيسلم، ويرضى الأسد عنه بذلك، وينجو من المهالك.

فقال: «لكن أنا فىّ للملك شبع رويًّ، ولحمى طيب هنىّ، وبطنى نظيف، فليأكلنى الملك، ويطعم أصحابه وخدمه، فقد رضيت بذلك وطابت نفسى عنه، وسمحت به.

فقال الذئب والغراب وابن آوى: «لقد صدق الجمل وكرم وقال ماعرف عنه.

ثم إنهم وثبوا عليه فمزقوه.

من باب الأسد والثور

قال كليلة: إنى أحذرك صيحة السلطان، فإن صيحته خطر عظيم، وقد قال العلماء: «إن أمورا ثلاثة لايجترئ عليهّن إلا أهوج[1]، ولا يسلم منهن إلا القليل وهى: صيحة السلطان،وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة».

وإنما شبه العلماء السلطان بالجبل الوعر الصعب المرتقى، الذى فيه الثمار الطيبة، والجواهر النفيسة، والأدوية النافعة، وهو مع ذلك معدن السباع والنمور، والذئاب، وكل سبع مخوف، فالارتقاء إليه شديد، والمقام فيه أخوف.

قال دمنة: «صدقت فيما وصفت غير أنه من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب، ومن ترك الأمر الذى لعله يبلغ فيه حاجته هيبة ومخافة لما لعله يتوقى، فليس ببالغ جسيمًا»

(١) طائش أحمق .

وقد قيل: «إن خصالا ثلاثا لن يستطيعها أحد إلا بمعونة من ارتفاع الهمة، وعظيم الخطر: منها عمل السلطان، وتجارة البحر،ومناجزة[1] العدو» وقد قال العلماء فى الرجل الفاضل المروءة: «إنه لايرى الا فى مكانين، ولا يليق به غيرهما: إما مع الملوك مكرمًا، أو مع النساك متبتلاً، كالفيل إنما جماله وبهاؤه فى مكانين: إما فى البرية وحشيًّا، أو مركبا للملوك»

«تعليق»

تلك أمثلة من كتاب «كليلة ودمنة» نرى فيها الفن القصصى الرفيع، والحوار المبدع المسترسل، والحكمة السائغة، والفكرة الواضحة، ولمسنا فيها سعة إدراك الكاتب، وجميل تصرفه، وإحاطته بخصائص الحيوان والطير، وتنديده بشريعة الغاب، وجميل أسلوبه، وبلاغة بيانه.

والكتاب كله نموذج جيد لتجاريب الحياة جاءت على ألسنة الطير والحيوان، لتكون الحكمة مستساغة، والموعظة مقبولة.

وما أحوج الشارين فى العلم إلى قراءة هذا الكتاب، والانتفاع بما فيه من حكمة وموعظة حسنة، صيغت فى أسلوب أخاذ، وبيان ناصع وعبارة مسترسلة ضمنت للكتاب الخلود والبقاء، وحسب ابن المقفع فخرًا أن يكون صاحب هذا الكتاب الذى طبقت شهرته الآفاق، وبقى على الرغم من حوادث الزمان ونوب الأيام، وكان فتحًا جديدًا ذا أدب رمزى خالد فى الأدب العربى والأدب الأجنبى.

وقد أكثرت من المختار من هذه القصص، لتكون أمام القارئ، يعاود قراءتها كلما اتسع لذلك وقته، وليحمله ذلك على الرجوع إلى الكتاب ليقرأه، ويتدبر مافيه من المعانى والأفكار، وليتخذ منه عونا على تفهم حيوات الناس ومجتمعاتهم، فالناس هم الناس فى كل زمان ومكان والحياة بأمواجها، وجزرها ومدها هى الحياة، وإن تغيرت مظاهرها.

وقد بين ابن المقفع ذلك المعنى فى عرض كتابه هذا حيث قال: «ينبغى لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التى وضعت له، وإلى أى غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم والطير، وأضافه إلى غير مفصح، وغير ذلك من

---

(١) مقابلته للحرب والقتال.

الأوضاع التى جعلها أمثالا، فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدرء ما أريد بتلك المعانى، ولا أى ثمرة تجتنى منها، ولا أى نتيجة تحصل له من مقدمات ماتضمنه هذا الكتاب».

وغنى عن البيان أن طالب البلاغة يجد فى كلام ابن المقفع مثالاً صالحًا يحتذيه فى الإفصاح عن ذات نفسه، ويرى كيف ينتقى ألفاظه، ليصوغ بها تراكيبه، ويأتى بهذه المعانى وهى - وإن لم تكن جديدة - جديرة بوضعها فى أساليبها المصفاة.

وقد غلب على كتاب «كليلة ودمنة» أسلوب ابن المقفع حتى نسب إليه ونسى الناس أصله الهندى ثم الفارسىّ، وإنك لتقرأ حكمًا فى هذا الكتاب أوردها بلفظها أو بمعناها فى بعض رسائله وكتبه، هذا إلى ما فى هذا الكتاب من ألفاظ إسلامية ومصطلحات ومنازع إسلامية أيضًا، ومن اقتباس من آى القرآن الكريم ومن الحديث النبوى الشريف ومن تضمين لمعانى بعض الحكم والأمثال وأبيات الشعر، وغير ذلك مما تذوقه وهضمه من الأدب العربى جاهلية وإسلامية ومن الأدب الفارسىّ الذى صقله وأخضعه لقواميس اللغة العربية وقواعدها حتى أصبح مستساغًا مقبولاً.

خاتمة

قدمت للقارئ الكريم فى إيجاز حياة رجل من سراة الفرس، بلغ من الشهرة والخلود، والعبقرية والذكاء، وسعة العلم، واتزان الرأى مبلغًا كبيرًا.

ولعلىّ فى هذا القدر المتواضع من الّدراسة لحياة أول مترجم من اللغة الفارسية إلى اللغة العربيّة لتمكنه من اللغتين وآدابهما، وتأثره بالثقافتين وحضارتهما، قد بلغت بعض ماينبغى لهذا الكاتب الألمعى، الذى استطاع أن يكون ذا تراث عربى خالد بما أنشأ من رسائل ديوانية وأخرى إخوانية، وبما ترجم من كتب الطب والمنطق والحكمة والفلسفة، وسير الملوك وتدبير المماليك ونظام رسومها.

وإذا كان لى من كلمة أنهى بها هذا البحث المشوّق، وتلك الدراسة العميقة عن حياة هذا الكاتب، الذى كان زينة الدولة العربيّة الإسلامية وهو الرجل الفارسىّ الأصل - فهى أننى لم أتتبع حياته فى جميع مراحلها تتبعًا فيه استقصاء حتى لا يمل القارئ من ذكر التفصيلات فى حياته واختلاف الرواة والأدباء فى آرائهم فيه وفيما كتب وألف وفى بقية كتبه، التى بقى اسمها وضاع أصلها، وإنما يرجع ذلك كله إلى دراسات المتخصصين.

وقد استنبطت معالم هذه الحياة الخصبة مما كتب ابن المقفع ومن بعض المراجع الموثوق بها، كما استنبطت ما امتاز به أسلوبه فى الكتابة من سلاسة وسهولة ونصاعة ووضوح، وحسبه أنه أول واضع للفن القصصى الرفيع فى كتابه «كليلة ودمنة».

ويتهمه بعض الأدباء كياقوت فى معجم الأدباء، وابن عساكر فى تاريخ دمشق بأن بعض الحكم التى أوردها ابن المقفع فى «اليتيمة» فى باب الصديق إنما أخذها من خالد بن صفوان وهو متقدم عليه، ولكن هذا لا ينهض دليلاً كما أن الشريف الرضى فى كتاب نهج البلاغة أورد كثيرًا من وصف الصاحب الذى بينه ابن المقفع فى قوله «إنى مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس فى عينى......».

وقد نسبه الرضى إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب بتحريف وزيادة لا مجال للإطالة فيهما فى هذا المقام.

كما أن ابن قتيبة فى كتابه «عيون الأخبار» أورد وصف الرجل الكامل من كلام ابن المقفع ونسبه للحسن بن على مع تحريف، ولكن بألفاظ ابن المقفع، والراجح أن نسبة هذا الكلام إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه، أو إلى الحسن بن على إنما هى عمل من أضافوا على كلام الإمام على كرم الله وجهه ماليس منه - سامحهم الله -، فإن نص عبارة ابن المقفع تعلن عن نفسها بأنه عرف رجلاً هذه صفاته تصفه، ولا يعقل أن يأخذ كلامًا لغيره ويجيز لنفسه نسبته إليه، وبخاصة إذا كان من مأثور الكلام المعروف صاحبه ثم إن «اليتيمة» اشتهرت قبل أن يؤلف نهج البلاغة بنحو قرنين ونصف قرن، ويؤيد ذلك هذا التصنع فى السجعات مما يبرأ منه أمير المؤمنين على بن أبى طالب وهو أكبر الفصحاء، والواقع أن أكثر مافى نهج البلاغة من كلام فصحاء الشيعة وغيرهم بدليل الاختلاف العظيم فى نسخه.

وقد اعترف ابن أبى الحديد شارح كتاب نهج البلاغة بأن ماعزى إلى الإمام على هو من كلام غيره من الحكماء.

إذا عرفنا ذلك ساغ لنا أن نقول إن كلام ابن المقفع فى صفة صاحبه قد استحسنه بعض المتأخرين فأدمجوه فى كتبهم.

وأما حكم ابن المقفع فقد ادّعى صاحب نهج البلاغة أن بعضها من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب، والواقع يخالف ذلك للسبب المتقدم، وإن كان ابن المقفع قد تأثر كثيرًا بخطب الإمام علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه حين قال: «شربت الخطب ريّا، ولم أضبط لها رويّا ففاضت....».

يريد بها خطب الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

على أن ابن المقفع قد سئل مرة: «من أدبك؟ فقال: نفسى كنت إذا رأيت حسنًا أتيته، واذا رأيت قبيحًا أبيته».

والحق أن ابن المقفع كان يحفظ كثيرًا من كلام العرب غير خطب الإمام علىّ كرم الله وجهه كالأمثال والحكم والأشعار والخطب.

هذا وقد أكثرت من المختار من أدبه ورسائله، لتكون هذه المختارات أمام القارئ يتدبر مافيها من المعانى والأفكار، وابن المقفع كما سبق القول ـ صاحب مدرسة أدبيّة ممتازة ذات خصائص مستمدة من حضارة الفرس وعلوم اليونان التى ترجمت إلى اللغة الفارسية، ومن الحضارة الإسلامية التي ظهرت آثارها فى تفكيره، وصفاء تعبيره.

ومن ذلك قول ابن المقفع فى «اليتيمة» عند كلامه عن مضار السلطان بجانب منافعه:-

«مثل قليل مضار السلطان فى جنب منافعه مثل الغيث الذى هو سقيا اللّه، وبركات السماء، وحياة الأرض ومن عليها، وقد يتأذى به السّفْر[١]، ويتداعى له البنيان، وتكون فيه الصواعق، وتدرّ سيوله فيهلك الناس والدواب، وتموج له البحار، فتشتد البلية منه على أهله، فلا يمنع الناس إذا نظروا إلى آثار رحمة الله فى الأرض التى أحيا، والنبات الذى أخرج، والرزق الذى بسط، والرحمة التى نشرت أن يعظموا نعمة ربهم ويشكروها ....» ومثل الرياح التى يرسلها اللّه بشرًا بين يدى رحمته، فيسوق بها السحاب، ويجعلها لقاحًا للثمرات، وأرواحا للعباد يتنسمون منها، ويتقلبون فيها، وتجرى بها مياههم، وتوقد بها نيرانهم، وتسير بها أفلاكهم، وقد تضر بكثير من الناس فى برهم وبحرهم و....».

ومثل الشتاء والصيف اللذين جعل الله حرهما وبردهما صلاحًا للحرث والنسل ونتاجًا للحب والثمر».

---

(١) السفر = المسافرون.

ومن حكم الفرس التى ترجمها الى العربية قوله: «إن بعض ملوك العجم قال: «إنى إنما أملك الأجساد لا النبات، وأحكم بالعدل لا بالرضا، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر»

وقال: «القضاء الحق العدل عند الفرس قتل النفس بالنفس، والقضاء العدل غير الحق قتل الحر بالعبد، والقضاء الحق غير العدل الدية على العاقلة(١) «ويقال» إن من بقية آثار هذا الكاتب «الرسالة الهاشمية» وقد ذكرها الجاحظ وانتقدها، وهى فى علم الكلام مبينًا أن ابن المقفع لم يحسن من هذا السلم إلا الحكاية لدعوى القوم، والجاحظ يعتبر ابن المقفع ضابطًا لحكايات المقالات فى علم الكلام، وأنه لا يحسن منه قليلاً ولا كثيرًا.

ولقد التمس بعض الأدباء وجهًا لكلام الجاحظ، وهو أن ابن المقفع أطلق لسانه فى المعتزلة، والجاحظ من أئمتها، فحكم عليه بما تقدم، وهذه الرسالة لم يعثر عليها حتى يمكن الحكم لصاحبها أو عليه.

على أن ابن المقفع عاصر نشوء علم الكلام فى الإسلام فلم يكن بدعًا أن يشتغل به، كما أنه ليس لابن المقفع رسالة فى هذا العلم.

وقد اكتشفت قصص فى الأدب اليابانى مماثلة لبعض أقاصيص كليلة ودمنة مثل باب القرد والغيلم كما أثبت ذلك الدكتور عمر فروخ فى الأمالى فى العدد السابع عشر وخاصة الأدب اليابانى، وقد أورد هذه المقارنة للمرة الأولى.

ولقد كان لكتب عبدالله بن المقفع أثر كبير فى تاريخ العرب الثقافى من نواح مختلفة، حتى انعقد الإجماع على تفضيله وعلو مكانته فى الكتابة والترجمة وإبراز شخصيته فى كل ماكتب من رسائل، وظل هذا التأثر إلى عصرنا الحاضر لكثير من أدبائه وكتابه ورواد نهضته تأثروا بكتابته فى كتاب «كليلة ودمنة» من حيث الاسترسال والسهولة الممتنعة والتحليل وجودة الحوار.

ولقد يحار الإنسان فى الاختيار من كلام ابن المقفع، الذى مرت عليه قرون وقرون، والأجدر بالأديب ويتدبر وألا يتكلف الاختيار من كلام كله در مختار.

---

(١) العاقلة = عصبة الرجل وهم القرابة من قبل الأب الذين يعطون دية من قتله خطأ.

ولقد كان ابن المقفع من أرباب التفاؤل لا التشاؤم، لطيف الاختلاط وادع النفس، ينظر إلى الأشياء من وجهها الحسن، ولا يفتأ يجملها بحسن ظنه، ويغالط نفسه فى حقيقة السعادة، فينبعث إلى العمل مرحًا، يحب من الملوك عدلهم، وأن يعملوا فى خشية من الله وخشية من الناس، ويحب من الأصدقاء أنداهم يدًا، وأوفاهم عهدًا، وأصدقهم قولاً، وأحسنهم دينًا، وأقواهم إيمانًا وأعفهم نفسًا؛ لأنه كان رجل نجدة وأنفة ومروءة ووفاء وحسن عشرة محافظاً على شعائر دينه، ليس فيه جمود الفقهاء ولا استهتار الأدباء، فهم من الدين مافهمه منه كل عاقل، فكان صحيح الإيمان، صحيح الإسلام.

إننا لنرجو أن نعثر على سائر كتبه، وآثاره الأدبيّة والحكمية، من مؤلفات ومترجمات، إذ فى ذلك نشر كبير، وثروة طائلة تضاف إلى التراث العربى الخالد.

وليس بغائب عن أذهاننا أن كثيرًا من هدا التراث الخالد قد وزّع فى المكتبات العربيّة، أو ضاع فيما ضاع من تراث الأجداد والآباء أو فى المكتبات الأوروبيّة التى احتجزت كثيرًا من المؤلفات العربيّة بعد نكبة الأندلس مثل مكتبة الأسكوريال ومكتبات لندن، وبرلين، وڤيينا وروما، وموسكو، والقسطنطينية وغيرها من المكتباب المنتشرة فى أنحاء العالم الغربى، وفى العالم العربى كبغداد، وتونس، والدار البيضاء، ودمشق، وحلب، والقاهرة.

وقبل أن أختم كلمتى أود أن أوضح للقارئ أن مثل عبدالله بن المقفع فى عصره يشبه إلى حدّما أحد أركان النهضة فى العصر الحاضر، وأحد المبعوثين المصريين إلى باريس وهو رفاعة رافع الطهطاوى أول مترجم من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، فقد كان له أثر أى أثر فى النهضة الفكرية فى مصر، وفى الثقافة العامة فيها فى عصر كانت البلاد أحوج ماتكون إلى علوم الغرب وآدابه، فقد ترجم كثيرًا من الكتب الفرنسية فى فنون شتى من العلوم والمعارف والعادات والأخلاق والسير، مما كان شائعًا فى فرنسا، كما قام بترجمة دستورها، ولكن ترجمته ضعيفة إذ لم يحافظ على تأدية العبارة الأصلية محافظة المتمكن من اللغة وآدابها، فلم يغير من المعنى شيئًا، وإنما كانت طريقته مناسبة لأهل عصره

واستطاع رفاعة الطهطاوى أن يترجم الكتب المهمّة، التى يحتاج إليها المصريون فى نشر العلم والمعارف والآداب والعادات، على أن أسلوبه فى الترجمة يختلف كثيرًا عن أسلوبه فى الإنشاء.

أما ابن المقفع فإنه ـ كما سبق ـ أول مترجم من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، وأنه ترجم كثيرًا من كتب الأدب والتاريخ والفلسفة والمنطق وغيرها، ولكن ترجمته تختلف تمام الاختلاف عن ترجمة رفاعة الطهطاوى فلم تكن ترجمة ابن المقفع نقلاً حرفيًا، وإنما كان يكتفى بانتقاء الفكرة من مظانها الفارسية، ثم يلبسها ديباجة من أسلوبه العربى البليغ، وأنه متصرف فيها بالحذف والزيادة، وبالتبديل والتغير أحيانًا، فقد كان يعالج الفكرة معالجة تتفق مع العقلية العربية وحاجاتها فى أسلوب عربى مبين.

وبجانب هذا كانت شخصية ابن المقفع بارزة فى كل ماترجم وكتب، وإنى لأحمد الله تعالى على ماهدى لجلاء حياة هذا العبقرى الفذ فى هذا الكتاب، ليضاف إلى أعلام العرب، وإلى تراث الإنسانية الخالد بما فيه من صور وأفكار، فله الحمد فى الأولى والآخرة وهو نعم المولى ونعم النصير.

عيسى محمود ناصر

الفهرس